روايات عبير

جانيت ديلي

عيناك بصري

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 13

عيناك بصري

قالت سابرينا : أحبه بجنون ولكني أكرهه بشدة . هل يجتمع الحب مع الكراهية ؟

بقدر تباعد الحب عن الكراهية ربما فصل بينهما خيط رفيع . وعلى سابرينا ان تحتكم الى العقل .. بدلا من بناء الآمال الكبيرة .. ولكن هل يمكن الاستماع الى صوت العقل عندما يتورط القلب ؟

وتساءلت سابرينا : هل هي الشفقة التي تدفعه الى مصاحبتها ؟ ام انه فعلا أحبَّ «مليكته العمياء».

لبنان	٦ ل.ل.	الكويت	٧٠٠ ف	اليمن	٨ ر	السودان	٧٠٠ م
سورية	٨ ل.س.	الامارات	٩ د	تونس	١ د	U.K.	£ 1
الأردن	٥٠٠ ف	البحرين	٩٠٠ ف	ليبيا	٧٠٠ د	France	F 10
العراق	٥٠٠ ف	قطر	٩ ر	المغرب	٨ د	Greece	Drs 120
السعودية	٨ ر	عمان	٩٠٠ ب	مصر	٧٠٠ م	Cyprus	P 1

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
THE IVORY CANE

المراسلات :
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece.

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١ - اللقاء الاول

راح طائر النورس يطلق صرخة مذعورة في عنان السماء وأخذت الريح تعصف فوق المحيط الهادىء، فتندفع المياه كالدوامات تلتف حول الزوارق الراسية في ميناء اليخوت على خليج سان فرانسيسكو. وفي الافق تناهى رنين القطار الكهربائي يتحرك نحو قمة شارع هايد.

وأقبلت سيارة كونتيننتال زرقاء اللون، يقودها سائقها بسرعة نحو موقف السيارات أمام الميناء. وكان السائق سيدة في منتصف الثلاثينات من عمرها ذات جمال أخاذ، وشعر أحمر، أوقفت السيارة بين الخطوط البيضاء، وبينما هي تضع يدها على مقبض الباب، ألقت بنظراتها على الفتاة الصامتة التي كانت تقبع الى جوارها، وقالت لها:

"البرد قارس في الخارج يا سابرينا، ومن المستحسن أن تنتظري في السيارة حتى أعرف ما إذا كان أبوك عاد من البحر."

وكانت العبارة التي قالتها السيدة ذات الشعر الأحمر مجرد إفادة، وليست اقتراحا. وفتحت سابرينا فمها لتحتج، فقد سئمت أن تعامل معاملة العاجز المريض.

وشعرت بنفاذ بصيرتها أن ديبورا لا تأبه كثيرا لصحبتها قدر اهتمامها بقضاء بعض الوقت وحدها مع والدها.

"كما ترين ديبورا."

قالتها سابرينا مستسلمة ولكن بتذمر، وراحت تقبض راحتها بشدة على مقبض عصاها. اللحظات الصامتة التي

تلت ذهاب ديبورا أثارت أعصاب سابرينا الثائرة. كان يكفيها أن تتحمل أغلال قيودها الجسدية بدون حاجة الى احتمال وضع صديقة أبيها ، بغض النظر عن أي اعتبار آخر.

صديقة أبيها ! وقلبت سابرينا شفتيها في استياء وهي تردد هذه العبارة، كانت هناك صديقات كثيرات لأبيها منذ وفاة أمها ، وكانت سابرينا آنذاك في السابعة، لكن ديبورا موسلي لم تكن مجرد امرأة أخرى ولولا الحادث الذي أصيبت به سابرينا منذ ثمانية أشهر، لكانت ديبورا الزوجة الجديدة لأبيها.

وقبيل الحادث كانت سابرينا تجد الأمر شيئا رهيبا كلما فكرت في أن أباها قد عثر على واحدة يود الزواج منها. ولم تكن ديبورا موسلي من اختيار سابرينا. صحيح أنها تحبها ، ولكن ما يهمها هو أن يكون أبوها سعيدا.

كانت سابرينا تتمتع باستقلال تام قبل وقوع الحادث. اذ خصصت لنفسها مكانا هو عبارة عن مسكن صغير جدا ، كان ملكا لها وحدها. وكانت لها وظيفة تمكنها من أن تعيل نفسها . أما الآن.. وصرخت الكلمة ممتزجة بنحيب يائس. وسيطول بها الزمن قبل أن تذكر شيئا من أحلامها مرة أخرى.

وسألت نفسها بهدوء وهي تنتحب:

"لماذا اختارني أنا دون بقية الناس؟"

ثم أردفت تسأل بصوت ملؤه الشفقة على نفسها:

"ماذا فعلت حتى أستحق كل هذا؟ لماذا اختارني أنا بالذات؟"

واعتصر الألم حلقها ، إذ لم تجد جوابا على سؤالها خاصة بعدما وقع الضرر ولا سبيل الى اصلاحه أو تعويضه ، كما صرح بذلك أخصائي تلو الآخر لها ولأبيها. وستظل عاجزة بقية عمرها ، ولن تكون هناك وسيلة لتغيير الوضع سوى حدوث معجزة.

وبدأت الثورة والغضب تسريان في عروقها. هل قدر لها أن تجلس للأبد في السيارات، وأن تقبع في البيت ، تاركة الآخرين يقررون مصيرها ؟

وخطرت لها فكرة. مقززة للنفس: وفكرت سابرينا في أن ديبورا تحدوها الرغبة في أن تنفرد بأبيها ، ليس من منطلق الرغبة في الاستمتاع بلحظات رومانسية معه، وإنما كجزء من خطة تدبرها لإقناعه بارسالها بعيدا الى بيت للتأهيل.

بيت للتأهيل! الكلمة دائما تشعرها بأن ديبورا

مجرمة. وقالت سابرينا يائسة:

"أضرع اليك يا رب ألا تدع أبي ينصت اليها. لا أريد الذهاب الى ذلك المكان. بالتأكيد توجد مدرسة أخرى."

وشعرت بالذنب وهي تصلي الى الله طلبا للمساعدة حيث أنه يؤلمها طلب المساعدة من أحد، فقد اعتادت دائما أن تتمتع بالاكتفاء الذاتي، والآن تعتمد باستمرار على شخص ما. لعل ديبورا في هذه اللحظة بالذات تحاول أن تقنع أباها بارسالها الى مدرسة أخرى. الآن يتقرر مصيرها وهي جالسة في السيارة دون أن تشارك بدورها في المناقشة، وإنما تدع شخصا آخر يتدخل ليدبر شؤونها.

تذكرت سابرينا كم من الآف المرات سارت من موقف السيارات الى المرفأ حيث يرسو زورق والدها. ولم تكن المسافة بينهما كبيرة. ورأت أنه لايوجد أي سبب يحول بينها وبين اجتياز هذه المسافة أذا ما تمسكت بالهدوء، وتمهلت في سيرها.

وبأصابع الفنان الطويلة، شدت تنورتها المخططة، وثبتت الياقة المطوية، ومرت بيدها الناعمة سريعا فوق شعرها لتتأكد من أن خصلاته البنية مثبتة في العقد المعقوصة فوق رأسها.

وشهقت سابرينا شهقة عميقة لتقمع الاضطراب المرتعش الذي سرى في أوصالها، وفتحت باب السيارة، وخرجت الى الرصيف، ثم أغلقت الباب وراءها، وأمسكت عصاها بحزم وتحركت في بطء نحو سور الميناء. وشعرت بالخوف عبر عمودها الفقري فشاع الرعب في قلبها، وهي تخوض رحلتها الصغيرة.

وكان نجاح محاولتها الأولى للخروج من السيارة مشجعا لها على الاسراع في خطوطها بلاوعي، لكن قدمها تعثرت فوق حاجز الموقف الحجري ولم تستطع أن تستعيد اتزانها وأفلتت العصا من قبضتها ، وانزلقت بوجهها على الرصيف.

اختفت روح الاثارة للتو، وارتعدت خوفا وبحثت بأصابعها المرتجفة عن العصا ، لكنها كانت بعيدة عن متناول قبضتها ، وفيما عدا الصدمة التي ألمت بمشاعرها ، فلم تحس بأي ألم. صحيح أنها لم تصب بأي ضرر، ولكن كيف تستطيع أن تتلمس سبيلها الى المرفأ بدون عصا ؟

"اللعنة.. اللعنة."

راحت سابرينا تلعن حماقتها على محاولتها الفاشلة. لو ان أباها وجدها في هذه الصورة، فذلك وحده كاف ليقنعه باقتراح ديبورا، ويؤكد أن سابرينا في حاجة الى مزيد من التدريب بمعونة أحد الإخصائيين.

وحينما رفعت جذعها مستندة الى أحد مرفقيها، حاولت أن تكبح جماح الفزع المتزايد ولذا رأت أن تفكر بروية في الخروج من هذا المأزق الذي تورطت فيه.

"هل أنت بخير؟"

تناهى اليها صوت رجل يهمس عارضا عليها مساعدته، ورفعت سابرينا رأسها في اتجاه الصوت، فقد توردت وجنتاها بحمرة الارتباك إزاء رجل غريب يجدها في وضع كله مذلة وتضطر الى أن تطلب منه المساعدة. لكنها تطلعت اليه في كبرياء وقالت بسرعة:

"أنا لم أصب بضرر!"

ثم أردفت تقول وهي غاضبة:

"عصاي... هل يمكنك أن تناولني أياها؟"

فقال بصوت اختفت منه نبرة المرح:

"بالطبع."

وفي اللحظة التي استرد فيها العصا، مدت سابرين يدها لتتناولها منه. ورفضا لتحمل مذلة شفقة بكلمة شكرا لك حتى، إلا أنها شعرت بخيبة أمل حينما ظلت يدها الممدودة خاوية، فتوهجت وجنتاها. وبغتة انسلت يدان قويتان لتستقر تحت إبطيها، وترفعا جسمها لتقف على قدميها. حدث كل هذا قبل أن تطلق زفرة اعتراض، ولمست أناملها بشرة ساعديه الصلبة. وحملت النسمة التي تهب من مياه المحيط رائحة العطر الذي يستعمله بعد الحلاقة ممزوجا برائحة رجولته المفعمة بالحيوية. كانت سابرينا طويلة القامة تبلغ خمس أقدام وسبع بوصات تقريبا، ولكن أنفاسه الدافئة، جعلتها تدرك أنه أطول منها بست بوصات على الاقل.

وكانت عصاها المثبتة فوق ذراعه، تنقر ساقها نقرا خفيفا، فاطبقت بأصابعها عليها، ورفعتها من فوق ذراعه، وقالت له:

"من فضلك دعني أرحل."

فقال الرجل بسخرية رقيقة:

"لم يتصدع شيء فيك سوى كبريائك. أليس كذلك؟"

وحررها من قبضته فابتسمت سابرينا في سخرية، ورغم أنها أعتادت التحديق بالآخرين، لم تستطع أن تتطلع الى وجه هذا الرجل الماثل أمامها، حتى لا ترى نظرة الشفقة في عينيه، فأدارت رأسها، وتمتمت بامتعاض وهي تخطو خطوة مترددة الى الوراء:

"شكرا لمعونتك."

وانتظرت لحظات لا متناهية وهي تطمع في أن يستأنف الرجل طريقه الى حيث يريد، ولكنها استطاعت أن تشعر بعينيه مسلطتين على ظهرها، وشعرت أنه يتمهل قليلا ليتأكد أنها لم تصب بأي أذى من تعثرها. وخشيت أن يضطر الرجل الى أن يقدم اليها المزيد من المساعدة، لذلك اتخذت قرارها أن تسير بجرأة. فجأة دوى صوت سيارة مصحوبا بأصوات فراملها، فأشاع ذلك الشلل في جسمها، وتسمرت مكانها لاتحرك ساكنا، وسرعان ما أحاطت وسطها ذراع صلبة جذبتها بشدة الى الوراء. وسألها الرجل بصوت فقد نبرته الرقيقة:

"هل تحاولين الانتحار؟ ألم تشاهدي السيارة المقبلة؟"

فقالت سابرينا بمرارة:

"كيف يمكنني ذلك؟"

صمتت ثم قالت وهي لا تستطيع الفكاك من الذراع الحديدية:

"عمياء!"

عندئذ سمعت وشعرت بزفرة سريعة تنطلق من صدره، قبل أن يديرها نحوه، ويصبح ساعداها سجينين بين قبضتيه. كانت عيناه تحترقان فوق وجهها حين أمسك ذقنها يرفعها عاليا، وأدركت سابرينا أن عينيها الضريرتين تتجهان الى وجهه.

"بالله عليك، لماذا لم تقولي هذا من قبل؟"

وكان صوته الغاضب مشوبا بلسعة وحشية لم تتوقعها، واستطرد يقول:

"لماذا لا تستخدمين عصا بيضاء؟"

وشعرت بلذعة تساؤله، فأجابت بنفس نبرة صوته:

"لماذا يفترض الناس أن أسير بعصا بيضاء؟ لماذا يتوقع الجميع أن أضع نظارة سوداء على عيني؟ هل المفروض أن أتجول بعلبة صغيرة من الصفيح وأصرخ قائلة معونة للعمياء. ولكوني عمياء لماذا أختلف عن الآخرين؟ ولماذا أكون

في منأى عنهم؟ إنني أكره حالتي عندما يشير الآباء الي، ويطلبون من أطفالهم أن يدعوا العمياء تتقدمهم. عصاي ليست بيضاء لأنني لا أريد أن أتمتع بأية امتيازات خاصة، أو أي شفقة.*

قال الغريب بتجهم:

إن مقتك للعصا البيضاء كاد أن يضيع حياتك، ولو أن سائق السيارة شاهد العصا البيضاء في يدك، لاحتاط أكثر، أبطأ السير ليتيح لك فرصة العبور، أو ربما أطلق زموره تحذيرا لك، ولكنك ترفضين أمساك عصا بيضاء إرضاء لكبريائك الحمقاء، أنت لن تعيشي طويلا. ما عليك الى أن تداومي على التعرض للسيارات، وسوف تصرعك أحداها أن عاجلا أو آجلا..

فأجابت سابرينا بصوت مختنق:

ليس من الصعب إدراك سر كبريائي. من يفقد بصره يدرك معنى الاهانة في التصريح بالامر.

فقال الرجل معنفا:

من الواضح أنك ترفضين شفقة الآخرين، وتتعثرين في بركة من الشفقة من صنع يديك.

يا لك من متعجرف!

ولم تتم سابرينا عبارتها، إذ قدرت يدها بدقة المسافة والارتفاع قبل أن تهوي بها على وجنة الرجل، لتصفعه صفعة مدوية، لكن مسار يدها لم يكتمل حين شعرت بيد لاسعة تلمس وجنتيها توبيخا وتأنيبا وكانت صدمة لم تتوقعها تفاقمت عشر مرات في أعماق نفسها، فهمست همسة غاضبة:

كيف تجرؤ على أن تصفع شخصا أعمى؟

فقال ساخرا:

ظننتك لا ترغبين في التمتع بامتيازات خاصة، أليس كذلك؟ أو أنك تحللين الامور كما يحلو لك؟ قرري واختاري بين اللين والرفق أو العنف والشدة.

ولهثت سابرينا بحدة، وقد وقعت في شراك كلماتها فقالت:

أنت شخص لا يمكن احتماله.

وحين التقطت أنفاسها تحولت عنه، ولكن أنامله كانت غائرة في كتفها، فتوقفت فقال لها:

ليس بهذه السرعة، أنت أسوأ من طفل يحبو.

ثم تمتم وقد عيل صبره:

*هل تسمعين صوت أية سيارات قادمة؟ هل تعرفين الى

أين أنت ذاهبة؟ وهل عرفت اتجاهك بالضبط؟*

وسألته سابرينا قائلة:

دعني وحدي أرجوك فمسؤولية سلامتي من شأني وحدي.

آسف...

لم يكن في نبرة صوته الأجش ما ينبيء بالاعتذار وأردف يقول:

ولكنه سواء شئت أم أبيت أري من واجبي أن تبلغي هدفك بسلام. أذهبي وسوف أسير وراءك.

وشعرت سابرينا به يهز كتفيه استهجانا. وودت من أعماقها أن تصرخ، لتريح نفسها لكن تصرفه الصارم أشعرها بأن صرختها ليست سوى تبديد لطاقتها. وفكرت في اللحظة التي سيراها أبوها مع هذا الرجل الى جوارها، وكل أنواع الاسئلة التي سينهال بها عليها، والقصة المحرجة التي سترويها، عندئذ استدارت في الاتجاه الذي قدمت منه، ثم قالت بخشونة:

لا حاجة الى أن تجهد نفسك، سأعود الى السيارة.

وتقومين بقيادتها... على ما أعتقد!

وعادت نغمة السخرية الى صوته الخفيض، ورأت سابرينا أن تتجاهل سخريته. وتملكها الارتباك والغضب وحاولت أن تسير وتتجاوز هذا الرجل الغريب.. لكنه تحرك سريعا ليسد عليها طريقها، وسألها برقة:

أية سيارة؟

الكونتيننتال الزرقاء التي تقف وراءك، في الصف الثاني.

ليس هذا هو المكان الذي توجهت اليه، حين رأيتك أول مرة.

وكزت على أسنانها ثم قالت بمرارة:

كنت أنوي السير على رصيف المرفأ. لألقي والدي وديبورا، حيث أنك تصر على مصاحبتي، فأنني أفضل أن أنتظرهما في السيارة.

فسألها:

وهل أبحرا وحدهما، وتركاك وحدك هنا في السيارة؟

وبدا أن نبرة صوته كانت تشير الى أن أباها وديبورا كانا مجحفين بحقها فبادرت سابرينا تقول:

*لا، أبي أبحر وحده. أما ديبورا وأنا فقد جئنا لنعود به. أنها الآن تقف في مكان ما على الرصيف. وكنت ذاهبة

لاتبين سبب تأخيرها•"
فسألها:
"هل ديبورا أختك؟"
تنهدت وقد نفذ صبرها:
"يبدو أنك مصر على التدخل في شؤوني الشخصية• ديبورا سوف تصبح أمي الجديدة، اذا كان الأمر يهمك!"
وأطبقت يده على مرفقها، وقادت قبضته الحازمة قدميها في الاتجاه الذي تعرف سابرينا أنه موقف السيارة• وبعد عدة خطوات ارتطم طرف العصا بالسيارة• وسألها الرجل:
"ما نوع لباس البحر الذي يرتديه أبوك؟ سأذهب لأكتشف سبب تأخيره•"
ورفضت عرضه، وقالت باقتضاب:
"لا••• أشكرك• ذهابك اليه سيقنعه بأني بحاجة الى مرافق دائم•"
وبدا السخط في صوتها، ثم أردفت تقول:
"إذا وعدتك بأنني لن أغادر السيارة، فهل ترحل عني وتتركني وحدي؟"
فقال لها الرجل:
"للأسف لم يعد بالامكان اخفاء لقائنا عن أبيك•"
فتجهمت سابرينا وسألته:
"ماذا تعني؟"
"هل ديبورا ذات شعر أحمر اللون؟"
"أجل•"
"حسنا• هناك رجل يسير في اتجاه أبواب الميناء، والى جواره تسير سيدة ذات شعر أحمر، إنه ينظر الينا بوجه غاضب وقلق•"
قالت وهي تتوسل اليه:
"أرجوك•• انصرف قبل أن يصل الينا•"
"لقد شاهدني معك• لو كنت في مكان أبيك لراودني الشك اذا رأيت رجلا غريبا يتحدث الى ابنتي وينصرف فجأة عند قدومي• من الأفضل أن أمكث معك•"
"لا••"
وهمست سابرينا متوسلة، الا أن كلمات التوسل لم تعد تجدي، اذ دوت صلصلة أبواب سور الميناء وهي تفتح وتغلق، فقال لها الرجل:

"كفاك ارتباكا وكأنني تقدمت اليك بعرض غير مهذب•"
وكان صوته الخفيض مختلطا بابتسامة دافئة، وهو يتمتع بقلقها الواضح للعيان، وحاولت بذكاء اخفاء ارتباكها بابتسامة رسمتها على شفتيها• وسمعت صوت أبيها يرحب بها قائلا:
"سابرينا•"
وشعرت بخفوت في نبرة صوته الذي اعتادت أن تسمعه مفعما بالدفء وهو ينادي اسمها• وأردف يقول:
"هل ضقت ذرعا بالانتظار؟"
وانتابها توتر عصبي، وبذلت جهدا للاحتفاظ بابتسامتها الباهتة فهي تدرك تماما معنى نظرته الفاحصة، فاستجمعت شجاعتها وقالت:
"أهلا بك يا أبي، هل استمتعت برحلة بحرية طيبة؟"
وضحك أبوها وسألها:
"وماذا أيضا؟"
وأحست سابرينا ان أباها يتساءل عن الرجل الذي يقف الى جوارها• وشغلها التفكير العميق في العثور على وسيلة للتخلص من الرجل الغريب حتى تعذر عليها أن تجد حجة واحدة تفسر بها وجوده الى جوارها وأفلت منها زمام الموقف، حين تحدث الرجل الغريب قائلا:
"لابد أنك والد سابرينا، كانت لتوها تسألني اذا رأيت سفينتك ليدي سابزينا، وهي تلقي بمرساها على الرصيف أنا أملك سفينة شراعية دام فورشن• أسمي باي كاميرون•"
فقال أبوها وقد تلاشى الحذر من صوته:
"وأنا اسمي غرانت لين•"
وكانت سابرينا تمسك بلاوعي أنفاسها خلال الحوار الدائر بين أبيها والغريب• وبعد انتهائه أطلقت زفرة صامتة• الآن عرفت أن الغريب يدعى باي كاميرون• وكانت واثقة أنه لايوجد زورق يحمل اسم ليدي سابرينا، لكن الرجل اختلق هذا الاسم عندما ذكر أبوها اسمها، وقدم عذرا معقولا ليبرر حديثه معها• ولمس أبوها كتفها بيده، فحولت وجهها اليه، وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة• سألها مداعبا:
"هل كنت قلقة علي؟"
ضحكت•• وقالت:
"أبدا يا أبي، لن أقلق على بحار قديم مثلك• فأنت

أفضل بحار رأته عيني."
"حسنا."
وأحست بكلمات التأييد تتعثر على شفتيه، وتمنت لو كانت التزمت الصمت. فلم تكن تبغي أن تذكره بالساعات السعيدة التي أمضتها معه في نزهاتهما البحرية بهذه المنطقة نفسها قبل أن تفقد نعمة البصر. وقطع باي كاميرون الصمت وقال:
"دائما تقلق النساء عندما يكون الرجال في البحر."
وقالت ديبورا بصوت خفيض:
"إنها طبيعتهن. ولا أظن الرجال يحبون رؤيتهن في غير هذه الصورة؟"
ووافق الأب على كلامها، وقال:
"تماما يا ديبورا، دعني يا سيد كاميرون أقدم لك خطيبتي ديبورا موسلي."
قال باي كاميرون:
"يسرني لقاؤك يا آنسة موسلي، وسامحوني لأنني استبقيتكم طويلا. إنني واثق من أن لديكم مشاغل."
فقال السيد لين وصوته يتسم بنبرة العرفان الصادق:
"شكرا لصحبتك لابنتي سابرينا."
وأضافت سابرينا تقول:
"وانا أيضا مقدرة لك سيد كاميرون اهتمامك بأمري."
فقال السيد كاميرون:
"أجل، أعرف."
وكانت سابرينا تعلم أن فقدان بصرها يجعل سمعها أكثر حدة. لذا أدركت رنة السخرية في كلماته، التي لم تلتقطها آذان أبيها وديبورا. وكان يدرك تماما علام تشكره، واستطرد يقول:
"ربما نلتقي مرة أخرى، أستودعكم الله."
وبعد تبادل التحيات، سمعت سابرينا خطواته تختفي تدريجيا وهي تبتعد الى مكان آخر من موقف السيارات، وتساءلت لماذا لم يجد الأمر مناسبا فيذكر لأبيها لقاءهما كما حصل، ربما الدافع الى ذلك هو شعوره بالشفقة عليها ولو أنه لم يبد عليه ذلك. وانفتح باب السيارة وراءها، فقطع سلسلة أفكارها بينما كان أبوها يقودها الى المقعد الخلفي، وقالت لها ديبورا بصوت زاجر بعدما جلسوا:
"ظننتك ستبقين في السيارة."

فقالت سابرينا كاذبة:
"شعرت بضيق نفس، فقررت الخروج لأستنشق الهواء."
قال غرانت لين:
"خروجك أضفى بعض اللون على وجنتيك، وخير لك الاستمتاع بمزيد من هذه النزهات."
تساءلت سابرينا هل تتضمن عبارته تعليقا بريئا، أم أنها ملاحظة تنم عن موضوع أثارته معه ديبورا، يتعلق بمدرسة المكفوفين الجديدة؟ لم يكن بإمكانها أن تجيب على هذا السؤال. فعقدت سابرينا ما بين أصابعها، وقالت ديبورا:
"هذا السيد كاميرون، هل التقيت به من قبل؟"
فأجابت سابرينا بخشونة وهي تدافع عن نفسها:
"لا.. لماذا؟"
"فأجابت ديبورا:
"ليس من طبيعتك أن تتحدثي الى الغرباء.. هذا هو كل ما أعنيه.."
وأجابتها سابرينا مصححة بخشونة:
"بل أنت تعنين ليس قبل أن أصبح عمياء، فأنا لم أشعر يوما ما بالخجل، وكل ما فعلته أنني سألت السيد كاميرون عن أبي."
وشاب الموقف لحظة صمت مطبق ولم تكن إجابتها تستدعي مثل هذا الصمت، رغبة ديبورا في إشاعة القلق وتدخلها السافر، أثار أعصاب سابرينا، وقطعت ديبورا الصمت لتسألها:
"هل يعد السيد كاميرون واحدا من أسرة آل كاميرون، سماسرة العقارات؟"
فأجاب الأب:
"آل كاميرون من الأسر التي أسست سان فرانسيسكو."
ان باي كاميرون مواطن من مواطني سان فرانسيسكو- تلك المدينة التي كانت سابرينا على اطلاع بتاريخها. ولم تكن سان فرانسيسكو شيئا يذكر حتى عام ١٨٤٩ الذي تم فيه اكتشاف الذهب. كانت مجرد مستعمرة صغيرة تطل على خليج سان فرانسيسكو يعني اسمها العشب الطيب. وكان الخليج ميناء للسفن التي ترسو بغية الانطلاق نحو ذهب كاليفورنيا.
وعثر قلة من رواد الذهب على المعدن النفيس. لكن الكنز الحقيقي كان يكمن في السلع، والخدمات التي أتوا

بها معهم. وامتلك قلة من الرجال الجزء الأكبرمن الذهب الذي جلبوا معظمه من كاليفورنيا نيفادا، وأسهموا به في انشاء مدينة سان فرانسيسكو.

وكانت أسرة كاميرون من الأسر التي أسست المدينة وهذا بالتأكيد سبب كبرياء الرجل.

وتنهدت، وتساءلت.. ما جدوى التفكير فيه؟ فالمرء لا يلتقي بمثل هؤلاء كل يوم. ومع ذلك أحبت صوته وخاصة حين كانت نبرته الخفيضة دافئة، محببة وسألها عما تفعل. وتساءلت عن حقيقة عمره.

وكانت مشكلتها أنها عمياء! لذلك عليها أن تعتمد على حواسها الأخرى لتحكم على الأشخاص الجدد الذين تلتقي بهم. وقد نجحت في هذا المضمار، وبدأت تكون فكرة عن شخصيته نتيجة المقابلة القصيرة التي تمت بينها وبين باي كاميرون. كان طويل القامة، يزيد قليلا عن ست أقدام، وحين جذبها من طريق السيارة المقبلة، أحست بمنكبيه العريضين، والبطن المسطحة، والأرداف النحيلة، كما أنه يتمتع بقوام فارع كما يبدو من صلابة عضلاته. ورائحة مياه المحيط التي علقت به لأكبر دليل على قيامه برحلات بحرية عديدة في زورقه الشراعي، مما ينم عن حبه للبحر. وكشفت لها رائحته النظيفة، وعطر ما بعد الحلاقة شيئا من عاداته الشخصية.

وكان الغضب يقف حائلا دون إدراك روحه المرحة التي شعرت بها وخاصة تحت شعار تعليقاته الساخرة، ويمكن قياس ذكائه من خلال أسلوب حديثه معها، أما بالنسبة لعمله فإنه فيما يبدو يتمتع بذكاء خارق، ودهاء ماكر، ولا شك أن ثروة الأسرة آمنة بين يديه، هذا إذا لم يكن قد نماها.

وأسندت ظهرها الى المقعد، واختالت بانتصار كبير، اذ حصلت على قدر كبير من المعلومات من أول لقاء بينهما، ولكن لم يبق سوى أمرين لم تدركهما بعد، أولهما: عمره الذي تستطيع أن تقدره... فهو بين الثلاثين والخمسين، وقد اعتمدت في حكمها على نضج صوته، وحالته البدنية. والأمر الثاني الذي تود معرفته هو الوصف التفصيلي لملامحه.. لون شعره وطبيعة عينيه. وأخيرا شعرت بالارتياح والسرور من نفسها.

ولوهلة اعتراها السكون. كان هناك شيء آخر لم تعرفه بعد.. هل هو متزوج أم أعزب، وهو أمر لن تستطيع أن

تتأكد منه حتى لو كانت مبصرة. هذا إذا لم يكن واحدا ممن يحتفظون بخاتم الزواج في أصابعهم. ولم تستطع أن تتذكر وجود الخاتم بأصبعه. ولم تأبه كثيرا أن تعرف أن كان كاميرون متزوجا أم لا. كل ما كانت تفعله هو مجرد تدريب لحواسها... وكان تدريبا مرضيا للغاية.

٢ - فنجان قهوة

تذوقت سابرينا الكريم شانتيه التي علقت بأصابعها، ونظمت بالسكين طبقة الكريمة على سطح الكعكة. وبغض النظر عن نوع الكعكة التي تصنعها كان أبوها دائما يقول لها إنها تركت بصمات أصابعها عليها. ولم تكن سابرينا دائما على ثقة من أن طبقة الكريم شانتيه تغطي الكعكة كلها، وأنما كانت تدع الحكم لمشاعرها، وأطراف أصابعها.

ووضعت سابرينا السكين على المنضدة، ثم أبعدت طبق الكعكة وأبت أن تستسلم لإحساس ينبئها بوجود ثقب غائر في الكعكة يشوه زينتها. كانت سابرينا قبل أن تفقد بصرها بسبب الحادث تتقن كل شيء على أكمل وجه.

أما الآن فأصبح غسل الأطباق امتحانا لقدرتها ومهارتها فما بالك بطهو الطعام، الذي أتقنت طهو مختلف انواعه فيما عدا إعداد طبق البيض، فلم تكن تعرف سوى طريقة واحدة لإعداده... طبق الأومليت لاغير ولذا أصبح إعداد وجبة الافطار من اختصاص أبيها.

وكان يوم الأحد هو اليوم الذي تقوم فيه دبيورا باعداد الطعام كما حدث في نهاية الاسبوع الأخير. وكانت سابرينا تشعر بأن مستواها في أعداد الطعام عاديا أذا ما قورنت بالمهارة التي تمتاز بها ديبورا، ومع ذلك كان والدها دائما يمتدح طهوها للطعام.

كانت هناك خادمة تتردد على المنزل مرتين كل أسبوع للقيام بمهام التنظيف الدقيق، أما بقية الأسبوع

فكانت سابرينا تتولى العناية بالمنزل، تنظفه بالمكنسة الكهربائية، المهمة التي تعودت القيام بها متمسكة بأهداب الصبر.

وتعلمت سابرينا أن تتحمل الملل الرهيب الذي كبلها بعدما أصبحت عمياء. وعرفت كيف تكبح جماح طعم المرارة، لأن مستقبلها الفني توقف أثر الحادث. فمنذ أن أمسكت بأصابعها فرشاة الألوان أصبح الفن معشوقها. ومن ثم تبنى موهبتها الفنية أفضل المدرسين المحيطين بها، فأصبحت فنانة ناجحة وهي لم تزل في الثانية والعشرين، وبفضل ما حصلت عليه من تدريب طوال خمس عشرة سنة أتقنت رسم صور الشخصيات التي قابلتها في مطعمي مرفأ الصياد والقطة الصغيرة.

وكانت قمة المأساة يوم حرمت من بصرها بسبب حادث السيارة... لم تعد تذكر تماما ماذا حدث في ذلك اليوم. كل ما تذكره أنها كانت تقود سيارتها عائدة الى المنزل في ساعة متأخرة من الليل، بعد قضاء عطلة الأسبوع مع صديقة لها في ساكرامنتو، وفي الطريق غلبها النعاس على عجلة القيادة فاختلت يدها، وكان الحادث الأليم.. ونقلت الى المستشفى.

وعلى فراش المرض أحست بأن العودة السريعة الى المنزل لا معنى لها بعدما أمضت شهرا في المستشفى للعلاج من كسور في ضلوعها، وارتجاج في المخ. وكانت الحقيقة المؤلمة أن الصدمة التي أصابت رأسها دمرت الأعصاب البصرية تدميرا لايمكن علاجه.

وهزت سابرينا رأسها هزة حاسمة، علها تدفع بهذه الذكريات بعيدا عن تفكيرها، فحياتها أصبحت بين يدي المستقبل وليس بالتطلع الى الماضي. في هذه اللحظة بدا المستقبل أمامها فارغا، مع أنها لم تكن تعتقد، منذ سبعة شهور خلت أنها سوف تنجز ما أنجزته حتى الآن.

وكانت العقبة التالية التي واجهتها سابرينا هي الخروج من المنزل لشراء زجاجة شامبو من الصيدلية على بعد خمسة مبان من منزلها، لأنها كانت تخشى حركة المرور، واجتياز أربعة تقاطعات للطريق. واستطاعت خلال الشهرين الأخيرين أن تستعيد ثقتها لمحاولة القيام بمثل هذه الرحلة بدون مساعدة أحد. بينما كانت كبرياؤها دائما تمنعها من القيام بهذه المحاولة خشية أن تضل طريقها.

ولكن سابرينا ارتدت ملابسها، وأمسكت بالعصا

البلوطية وذكرتها نعومة الخشب بذلك الغريب المتعجرف باي كاميرون، الذي التقت به في ميناء اليخوت الأحد الماضي، ولم تأبه به كثيرا.

خرجت سابرينا من المنزل بحرص، وكان الطريق منحدرا فراحت تعد الخطوات ببطء وحرص شديد، وهي تتجه الى الباب الأمامي للمنزل المجاور.

ودقت سابرينا الجرس وانتظرت أن ترد عليها جارتها، حيث كان أبوها حريصا على أن تبلغ أي شخص بوجهتها وميعاد عودتها، سواء أبلغت ذلك جارتها، بيغي كولنز التي تعرفها منذ خمس عشرة سنة، أم اتصلت به في مكتبه.

وأجاب صوت نسائي على الرنين:

"من هناك؟"

"أنا سابرينا. أنا ذاهبة الى الصيدلية. سأعود خلال ساعة تقريبا. هل تحتاجين الى شيء؟"

"هل لك أن تحجزي لي تذكرة سفر في الطائرة المتجهة الى أميركا الجنوبية؟"

ضحكت سابرينا وسألت:

"هل الأمر سيء الى هذا الحد؟"

فقالت بيغي:

"اتصل بي كين منذ ساعة، وأبلغني أنه ينوي دعوة اثنين من عملائه لتناول العشاء هنا، وليس في البيت أي طعام. وقد نظفت الثلاجة من الثلج، كما أن محتويات الخزائن متناثرة في الغرف."

فابتسمت سابرينا وقالت:

"سأعود خلال ساعة تقريبا. اخبريني، هل تحتاجين الى شيء.. ثلج أو شراب أو طعام؟"

فتنهدت بيغي وقالت:

"الحل الوحيد هو أن أعثر على زوج يحسن اختيار التوقيت المناسب. احترسي يا سابرينا من المرور وسوف أخبرك اذا احتجت الى شيء حين تعودين.

استأنفت سابرينا السير مرة أخرى، وساعدتها روح جارتها المرحة على أن تستعيد قوة عزيمتها، وأصبحت الرحلة الى الصيدلية مجرد مغامرة وليست عقبة. وارتطم طرف عصاها بصندوق البريد، وعرفت أين وصلت، وعبرت الطريق وبدأت تعد خطواتها حتى لا تدخل صالون تصفيف الشعر بدلا

من الصيدلية كما فعلت في المرة السابقة. وانتابها فجأة إحساس أثار الضحك في أعماقها، فرفعت ياقة سترتها بطرف أصابعها، وسيطرت على رغبتها بالضحك.

وصدق إحساسها حين سمعت صوتا أجش مألوفا لديها، جاءها من خلفها:

"أري أنك لا تحملين عصا بيضاء."

وأصاب أطرافها شلل مفاجيء، قبل أن تستدير برأسها لتواجه صوت الرجل، وقالت له ببرود:

"السيد كاميرون؟ لم أتوقع رؤيتك مرة ثانية."

قال كاميرون:

"المدينة ليست كبيرة كما تبدو لك. كنت أقود سيارتي في الطريق حين رأيت فتاة تسير وفي يدها عصا، فانتابني دهشة لانها لم تلق مصرعها بعد. وتعجبت حينما عرفت أن الفتاة الصغيرة هي أنت."

ثم سألها بنغمة ساخرة تعرفها تماما:

"هل تبحثين عن أبيك مرة أخرى؟"

وحولت سابرينا رأسها في الاتجاه الذي كانت تسير فيه، وقالت:

"كنت في طريقي الى الصيدلية، هل كنت تقود سيارتك؟"

"أجل. تركت سيارتي في الطريق. هل تقطنين هنا؟"

"على بعد بضعة مبان. لماذا توقفت؟"

ألقت عليه السؤال وهي تهز رأسها، وتحدوها الرغبة في أن ترى التعبير الذي ارتسم على وجهه. فأجاب بنعومة:

"لأطلب منك أن تتناولي فنجانا من القهوة معي."

ولم تستطع أن تخفي القلق الذي شاب صوتها حين سألته:

"لماذا؟"

قال باي كاميرون ضاحكا:

"هل من الضروري أن يكون هناك سبب؟ لم لا تكون دعوة يقدمها لك صديق؟"

"أنا لا أرى سببا يدفعك لأن تتناول القهوة..."

وصمتت قليلا وأوشكت أن تقول "مع فتاة عمياء" ولكنها ختمت عبارتها بكلمة.. معي.

"أعتقد يا سابرينا أنك لاتعانين عقدة التعذيب فقط، وأنما تعانين الاحساس بعقدة النقص أيضا."

"هذا سخف."

وتوقفت العينان البنيتان اللتان فقدتا البصر عن التطلع اليه، وحولت وجهها الى السيارات المارة في الطريق، وأطبقت أصابعه القوية على مرفقها وقال:
"حسنا. أين تودين أن تتناولي القهوة؟ إنني أعرف مقهى صغيرا في المبني التالي يمكننا أن نذهب اليه."
فقالت له وهي تبدي اعتراضا واهيا:
"إنني على يقين من أن زوجتك ترحب بقضاء وقت فراغك معها."
قال لها:
"إنني واثق من ذلك... هذا إذا كان لي زوجة."
واعترضت سابرينا ثانية وقالت:
"سوف أشتري شيئا من الصيدلية."
فسألها:
"هل تحتاجين الى وقت طويل؟"
وتمنت أن يحتاج قضاء مهمتها الى وقت طويل، فلم تكن راغبة في قضاء أي وقت معه، لأن نبرة الثقة التي أحاطت بلهجة جعلتها تشعر بأنها دونه بكثير. وأخيرا قالت ورأسها منكسة الى الأرض:
"لا.. إن الأمر لا يحتاج الى وقت طويل."
فقال باي كاميرون في رقة:
"افتقادك للحماسة غير مشجع، هل تفضلين أن أنتظرك خارج الصيدلية؟"
فهزت سابرينا رأسها وقالت:
"لا يغير ذلك من الموقف كثيرا."
فقال:
"في هذه الحالة... سأذهب معك. إنني في حاجة الى شراء بعض السكاير."
وشعرت سابرينا باحتكاك ذراعه بكتفها، حينما قام بفتح باب الصيدلية، وقد أطلق سراح مرفقها من قبضته لتتخذ طريقها وحدها، وتنفست الصعداء حينما سمعت خطوات كاميرون وهي تتجه الى قسم التبغ. وبلغها صوت العاملة يسألها:
"هل هناك أية خدمة يمكن أن أقدمها لك؟"
وقبل أن تجيب سابرينا سمعت صوت رجل يرحب بها قائلا:
"سابرينا.. بدأت أظن أنك نسيت أين تقع صيدليتي، لم

أرك منذ أسبوعين تقريبا."
فابتسمت سابرينا وقالت:
"أهلا.. جينو."
فقال الرجل للعاملة:
"اتركيها يا ماريا سأقوم أنا بخدمتها. اذهبي لتلبية طلب الرجل الواقف عند قسم الأدوية."
وبعد أن انصرفت العاملة، همس جينو مارشيتي في أذن سابرينا قائلا:
"ماريا عاملة جديدة، وهي ابنة عم زوج شقيقة زوجتي. بدأت العمل في الصيدلية منذ أسبوع فقط، ولم تتعرف بعد على زبائني."
وكانت سابرينا تعرف أن جميع العاملين بالصيدلية يمتون بالقرابة لصاحبها، لكنها أدركت أن ماذكره جينو كان بمثابة إعتذار مهذب إذ أن العاملة الجديدة لم تكن تعرف أن سابرينا مكفوفة.
قالت سابرينا:
"إنها تتمتع بصوت جميل، واني على يقين من أنها ستدرك حالتي."
سألها الرجل:
"ماذا تحتاجين اليوم؟ قولي لي لأحضره لك سريعا."
"أريد شامبو."
وبينما ذهب جينو لاحضار ما تريد راحت تتحسس العملات الورقية الموجودة في حقيبتها، وقد ميزت كل عملة بطية خاصة حتى يسهل عليها استخراج المبلغ الذي تريده. وعندما وقف جينو أمام الخزنة قال لها:
"مازالت الصورة التي رسمتها لي معلقة على الحائط، والزبائن دائما يقولون لي: هذه الملامح تشبهك تماما. فأقول لهم: طبعا.. إنها صورتي، وأخبرهم أن الفنانة التي رسمتها كانت تتردد على الصيدلية منذ كانت فتاة صغيرة، وأهدت الي اللوحة بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على افتتاح الصيدلية، والكل يعتقد أنها أفضل هدية قدمت لي."
فابتسمت سابرينا وقالت:
"يسرني أنها تعجبك يا جينو."
وتذكرت سابرينا كم كان سعيدا يوم قدمت له هذه اللوحة منذ حوالي سنتين، إذ نجحت في أن تبرز فيها ملامحه،

وكان ذلك مبعث فخر لها. أما الآن فلم تعرف هذا الاحساس الخلاق مرة أخرى، وانتشلها صوت جينو من أفكارها وهو يقول:

"سابرينا.. إنني لم أقصد."

وأحست في صوت الايطالي العجوز نبرة اعتذار، وتقريع للنفس، وشعرت أن ملامح الاكتئاب والحزن ارتسمت على شفتيها، فاستعادت طبيعتها، وقالت له متعمدة أن تفوت عليه لهجة الاعتذار:

"لم تكن اللوحة سوى هدية متواضعة، تعبيرا عن امتناني لأصابع النعناع التي كنت تقدمها لي."

وشعرت أن شخصا يراقبها عن كثب، ولم تدهش حين تكلم باي كاميرون. لأن حدسها نبهها الى وجوده. سألها بهدوء:

"هل رسمت هذه اللوحة؟"

قالت:

"أجل."

فقال جينو:

"أنها رائعة.. أليس كذلك؟ لقد بعت لها أول أقلامها، ثم الألوان المائية والطباشير الملونة، وبأسلوبي البسيط ساعدتها على أن تكون فنانة، فمنحتني هذه اللوحة هدية منها. واعتادت أن تأتي الى الصيدلية مرة كل أسبوع، وأحيانا مرتين، حتى ذلك اليوم الذي وقعت فيه الحادثة."

واعترت صوته نبرة أسى ثم أردف يقول:

"أما الآن فقلما تأتي الى هنا، وفي الأسبوع الماضي شاهدتها وهي تمر بصيدليتي، وتساءلت عن وجهتها، ورأيتها تدخل صالون تصفيف الشعر الذي يقع الى جواري، فقلت في نفسي: أوه... أنها تنوي قص هذا التاج من الشعر الذي يزين قمة رأسها، ولكنني تبينت أنها كانت آتية الى الصيدلية فأخطأت الطريق."

وعقب باي كاميرون على كلامه قائلا بصوت ناعم:

"هل تعلم أنني حين رأيتها لأول مرة، بدت لي هذه العقدة من شعرها البني الحريري كما لو كانت تاجا يزين رأسها؟"

وأحست سابرينا بتورد وجنتيها فقالت بسرعة:

"أخذت من وقتك الكثير يا جينو. إنني أعرف أنك مشغول بعملك، والزبائن في انتظارك. سوف أراك في الأسبوع القادم."

"بالتأكيد سأراك في الأسبوع القادم يا سابرينا."

"أجل. وداعا يا جينو."

"وداعا يا سابرينا."

واستدارت بسرعة وهي تدرك أن باي كاميرون قد أفسح لها الطريق ويتتبع خطاها، ولم تعتمد عليه ليقودها. وأجاب جينو دون أن يبدي دهشة لوجود هذا الغريب معها:

"وداعا يا سابرينا."

وقال لها باي وهما يغادران الصيدلية:

"المقهى يقع على اليسار، عند المنعطف."

فقالت سابرينا بخشونة:

"إنني أعرف أي مقهى تقصد، فقد أعتدت على ارتياده لسنوات طويلة."

وسارا جنبا الى جنب على الرصيف، ولم يحاول أن يقودها، وتركها تسلك طريقها دون أية مساعدة. وأنهى باي الصمت الذي خيم عليها وقال:

"أنها لوحة جميلة للغاية. هل تدربت على الرسم منذ طفولتك؟"

وابتلعت الغصة التي توقفت في حلقها، وأجابت بهدوء:

"تلقيت دروسا فيه. كان الرسم مستقبلي وحققت فيه نجاحا نسبيا."

فقال لها:

"أعتقد ذلك. كنت ممتازة في مضمارك."

فقالت بمرارة:

"كنت..."

ثم التقطت أنفاسها قائلة:

"أنا آسفة."

فقال مستهجنا:

"لا داعي للاعتذار، لابد أنها كانت ضربة قاسية مزدوجة أن يفقد الفنان بصره، ولابد أنك تشعرين بظلم القدر، وإلا ما كنت إنسانة."

ومد يده ولمسها في ذراعها لمسة خفيفة ليجذب انتباهها، ثم استطرد يقول:

"يمكنك الاستعانة بالدرابزين الحديدية لهبوط السلم."

وحين استقرت يدها على الدرابزين، عادت يده الى جانبه، وتقبل باي الألم الذي شعرت به لفقد مستقبلها كأمر طبيعي، وكان في غنى عن أي تفسير ولم يردد أي من

تلك الكلمات الجوفاء التي قالها البعض بأنها ستتغلب على عجزها يوما ما تلك الكلمات التي لم يكن بمقدور سابرينا أن تصدقها في يوم من الايام.

وعند نهاية السلم تقدمها باي ليفتح باب المقهى، وأمسكها بيد حنونة وظلا مكانهما حتى قادتهما المضيفة الى مائدة صغيرة بين مقعدين طويلين مرتفعي الظهر. ثم قال لها:

"دعيني آخذ عصاك. سوف أعلقها على العمود القائم الى جوار مقعدك حتى لا تعترضي الطريق."

ناولته سابرينا العصا، وجلست على المقعد، واستقرت أناملها في عصبية فوق المائدة. كانت فيما مضى تتجنب المطاعم العامة لأنها كانت تشعر بأنها مقيدة. ولمست طرف قائمة الطعام ثم أزاحتها جانبا.

كانت المضيفة قد أقبلت نحو المائدة، وطلب باي فنجانين من القهوة قبل أن يوجه حديثه الى سابرينا:

"لديهم فطائر طيبة من صنع أيديهم.. هل تحبين تناول واحدة منها يا سابرينا."

وفي عصبية قالت بسرعة:

"لا... لا... أشكرك."

وأخرج علبة السكاير وقال:

"هل ترغبين في التدخين؟"

"لا بأس."

وأقبلت المضيفة بالقهوة في اللحظة التي وضع فيها باي سيكارته مشتعلة بين أصابع سابرينا، وقرب المنفضة قليلا حتى تكون في متناول يدها وسحبت نفسا عميقا من السيكارة، وانتابها دهشة خفيفة حين شعرت بدفء شفتيه على السيكارة، وسألها باي:

"هل أصب لك بعض القهوة؟"

قالت سابرينا وهي تنفث الدخان من فمها ممتزجا ببعض التوتر:

"لو سمحت.. شكرا."

وساعدتها رائحة القهوة المتصاعدة في العثور على الفنجان بسهولة، فأطبقت بأصابع يدها حوله، وخيم الصمت الذي أشاع الهدوء في نفسها، حين مقابلتها الأولى له مشوبة بغطرسته التي مازالت قائمة، وهذا ما أكده لها سلوكه حين قادها الى المقهى، وأن كان تفهمه لها قد خفف من حدة

تلك الغطرسة.

وعلى الرغم من الجدل الذي دار بينهما حول العصا البيضاء، الا أنها أحست بأنه بدأ ينصاع الى رغبتها في الاستقلال، وأن المساعدة التي قدمها لها لم تكن فضولية، واقترن ذلك بتعليقه الواقعي على ضياع مستقبلها، ودفعتها كل هذه العوامل الى أن تعيد النظر في رأيها عنه. وبدا لها باي كاميرون رجلا غير عادي، وودت لو أنها التقت به قبل أن تفقد بصرها حتى تستطيع أن تقوم بدراسة ملامح وجهه.

وتنهدت سابرينا فتساءل باي ساخرا:

"لماذا تتنهدين؟"

فقالت باستخفاف:

"لا شيء..."

فسألها:

"مجرد عادة لقطع الوقت؟"

"أحيانا.. حين لا أجد شيئا يجذب انتباهي."

ومرت سريعا بأصابعها حول حافة الفنجان ثم استطردت تقول:

"وأتساءل حين أكون وحيدة، ماذا كنت أفعل لو لم تتح لي الحياة نعمة رؤية الناس والأماكن والأشياء بكل دقائقهم فاستطعت أن أختزن ثروة من المشاهد الجميلة التي أتذكرها الآن؟"

فسألها باي بهدوء:

"إذن فأنت تؤمنين بالقدر؟"

أجابت سابرينا:

"أحيانا يبدو أنه التفسير الوحيد... وأنت ما رأيك؟"

"أعتقد أن الحياة منحتنا بعض المواهب والقدرات، وأسلوب تعاملنا معها هو دليل على شخصيتنا، وأنا أحب أن أكون سيدا لقدري."

وكانت أجابته مغلفة بروحه المرحة. وعقبت سابرينا على رأيه بابتسامة شاحبة:

"أشك في أنك لا تبغي شيئا الا وتحقق لك."

"ربما... وربما أكون حريصا على ما أبتغيه."

وغابت الابتسامة عن شفتيه ثم استطرد يقول:

"خبريني يا سابرينا.. كم من الوقت مضى عليك منذ فقدت بصرك؟"

بدأت سابرينا تدرك أن باي كاميرون معتاد على طرق الموضوع بشكل مباشر، وكان أغلب الناس الذين عرفتهم أو ألتقت بهم يتجنبون الإشارة الى موضوع فقد بصرها، ويحرصون على ألا تتضمن أحاديثهم أية كلمات تشير الى البصر لذلك تعجبت من أن صراحته لم تؤلمها. والتقطت نفسا من السيكارة، قبل أن تجيب على سؤاله:

"منذ ثمانية أشهر تقريبا."

وخالجها إحساس بأنه رفع حاجبه وهو يسألها مداعبا:

"وكم يوما... وكم ساعة؟"

وحاولت سابرينا أن تبدو فاترة وهي تقول له:

"توقفت عن متابعة تحديد الزمن بعد أن أبلغني الإخصائي الرابع بأنني لن أبصر مرة أخرى."

فسألها:

"ماذا حدث؟"

قالت:

"حادث اصطدام سيارة، كان الوقت متأخرا في الليل، وكنت أقود سيارتي وأنا عائدة من ساكرامنتو، وغلبني النعاس وأنا في الطريق، فاختلت عجلة القيادة في يدي، ولم أعلم ماذا حدث بعد ذلك..."

واضطربت أصابعها فعادت تمسك بالفنجان، واستطردت تقول:

"ونقلت الى المستشفى، ولم يكن هناك أي شهود سوى راكب دراجة بخارية تصادف مروره ورأى حطام عربتي ملقى في حفرة، فأبلغ السلطات المسؤولة التي وصلت بعد عدة ساعات من الحادث."

وانتظرت سابرينا أن تسمع منه التعليقات تعقيبا على حديثها وخاصة بعد أن أفاضت في سرد التفاصيل وتوقعت أن يقول لها عبارات مثل، كان من المحتمل أن يكون الحادث أبلغ سوءا مما كنت تتوقعين أو أنت سعيدة الحظ لأنك لم تصابي بشلل، ولكنه لم يتفوه بواحدة منها، وإنما سألها:

"وماذا ستفعلين الآن؟"

"لا أعرف، لقد هيأت نفسي لكي أتعلم من جديد كل الأمور التي اعتدت القيام بها تلقائيا، ولما كنت قررت أن أتخذ الفن مهنة لي، لذا لم أتعلم شيئا آخر سوى القراءة والكتابة والحساب. أما الآن فانني أبحث عن آفاق جديدة حتى لا

أكون عبئا على أبي."

فقال لها:

"أشك أنه يرى أنك تشكلين عبئا عليه."

"أعلم تماما أنه لا يفكر في ذلك."

وراحت بلا وعي تؤكد على ضمير المذكر، ولم يغب عن باي كاميرون مقصدها، فأضاف قائلا:

"ولكن هناك شخصا آخر يفكر في ذلك، أليس كذلك؟ هل هي خطيبة أبيك؟"

وحاولت أن تعترض، ولكنها أومأت برأسها وقالت:

"إنني لا ألوم ديبورا، فهي تريد أبي لنفسها."

وترددت قليلا قبل أن تتابع حديثها قائلة:

"أرجو ألا تسيء فهمي، فأنا أحبها، وفي الحقيقة أنا التي عرفتها بأبي. أنها تملك حانوتا للتحف هنا في سان فرانسيسكو وهي تعلم تماما أنه لا يمكن أن يجعلني وإياها في بيت واحد، وترغب في أن ألتحق بمدرسة أخرى سمعت عنها حيث يدرب المكفوفون على بعض المهارات الجديدة، لا أعني أشغال السلال أو مهنا حرفية، وأنما مهارات منوعة، وتعد المدرسة أيضا برامج للتأهيل المهني بعد أتمام الدورة."

"وما هو رأي أبيك؟"

أجابت وعلى شفتيها ابتسامة ملتوية:

"أعتقد أنها لم تخبره بعد بفكرتها، وأظن أنها تريد أن تدعني أقع في خطأ كفيل بأن يدعم موقفها حينما يعرض أبي الأمر علي."

وسألها باي وهي تطفيء السيكارة في المنفضة:

"هل تضيقين بنفسك؟"

ومدت سابرينا أصابعها فوق المنضدة وراحت تتطلع اليها كما لو كانت حقا تراها، ثم قالت:

"أعتقد ذلك... إنه أمر طبيعي أليس كذلك؟ كل أنسان يريد أن يوهم نفسه بأنه مفيد."

"ألا تفعلين شيئا تعتبرينه مفيدا؟"

"أعنى بشؤون المنزل، وأقوم بطهو الوان الطعام، ولن يكون في وسعي مواصلة أداء ذلك بعد أن يتزوج أبي ديبورا فعندئذ ستصبح هي ربة البيت."

وتابعت النظر الى أصابعها بعينين فقدتا نعمة البصر ثم أردفت تقول:

"أنا أعرف أن في وسعي أن أتعلم شيئا."
وأطبقت يديها حول الفنجان وهزت رأسها في قلق ثم قالت:
"إنني مازلت مفعمة بقدر كبير من الكبرياء، وأعرف مدى أهميتي ويداي تحملان دائما فرشاة الفنان، لذلك أتساءل لماذا أرجيء اليوم الذي ينبغي فيه أن تقوما بشيء آخر؟"
"وماذا يقول حبيبك تجاه كل هذا؟"
"حبيبي؟ ليس لي حبيب. لي أصدقاء كثيرون من الرجال، ولكن ليس لدي أحباب."
وعلق باي على قولها بصوت يشوبه الشك:
"أنت فتاة جذابة، ويصعب على أن أصدق أنه ليس لك علاقة عاطفية بأحد."
وهزت كتفيها باستهجان:
"كان لدي دائما مستقبلي الفني. وكثيرا ما خرجت مع بعض أصدقائي ولكنني كنت حريصة على عدم الارتباط بهم عاطفيا. كنت أرى أن الحب والزواج سوف يأتيان في المستقبل. أنا سعيدة الآن بموقفي الذي أتخذته. كم من الرجال يرغبون بالارتباط بزوجة عمياء برأيك؟"
فسألها وهو يكتم ضحكته:
"ألا تعتقدين أنك تعرضين وجهة نظر ساخرة تجاه الجنس الآخر؟"
فابتسمت وقالت:
"انها ليست وجهة نظر ساخرة لا تجاه الجنس الآخر ولا تجاه الحب، وانما هي نظرة واقعية. أن الناس يشعرون عادة بالحرج أمام الأعمى، ويحاولون أن يكونوا في منتهى الحرص عند التعامل معه، فلا يجرحون مشاعره بالاشارة الى عجزه عن القيام بأية مهمة توكل اليه، أو انه يشكل عبئا في علاقته بهم."
فقال ساخرا:
"غريب فأنا لا أشعر بأقل عبء أو حرج وأنا أجالسك الآن."
واضطربت سابرينا حين سمعت منه هذه الملاحظة، لأنها كانت نابعة من شعور صادق فاعترضت قائلة:
"الواقع أنني لا أعنيك برأيي هذا، وانما كنت أشير الى بعض أصدقائي، الذكور منهم والاناث على حد سواء. إنهم مازالوا على اتصال بي، يتحدثون الي هاتفيا أو يزورونني

أو يدعونني للخروج معهم، كسابق عهدهم، وكان الفن هو الصلة التي تربطني بهم. لذا أدرك سبب حرصهم على عدم الاشارة الى موضوع فقد البصر أمامي وهناك آخرون يتملكهم انزعاج مبهم عند الحديث عنه، أما معك فأنا في الواقع لم أدرك بعد كنه إقبالي عليك. ووجدت نفسي أتحدث اليك في أشياء لاتهمك، ولا أدري لماذا أسردها على مسمعك. هل أنت من هواة التحليل النفسي؟"
ارتسمت تقطيبة صغيرة من الحيرة فيما بين حاجبيها، وأحست سابرينا بابتسامته وهو يقول لها:
"لست محللا نفسيا، ولم أشعر مطلقا بالضجر، وإنما كنت أتخيل كل هذه الخلجات تتصارع داخل نفسك لفترة من الوقت. إن من السهل على الانسان دائما أن يتحدث الى الغرباء الذين لم يحددوا تصورا مسبقا لآرائه، وقد حدث أنني كنت أنا هذا الغريب الذي أمكنك العثور عليه بسهولة."
فسألته وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة يشوبها التحدي:
"وفي هذه الحالة. ماهي النصيحة الحكيمة التي تسديها الي؟"
"الغرباء لايقدمون النصائح، إنهم فقط ينصتون."
وكانت الضحكة واضحة في صوته الخفيض وهو يجيب على سؤالها بحنكة. واقتربت أقدام متعجلة نحو المائدة وسألتهما المضيفة:
"هل تريدان مزيدا من القهوة؟"
فقالت سابرينا:
"لا حاجة بي الى المزيد. أشكرك."
وتحسست سابرينا بأصابعها الأرقام البارزة الموجودة في ميناء ساعتها ثم قالت:
"حان الوقت لكي أعود الى المنزل."
وقال باي للمضيفة:
"الحساب من فضلك."
وفي نفس الوقت غادرت سابرينا مقعدها، ووقف باي الى جوارها، وهو يقدم لها العصا البلوطية، واستقرت يده مرة ثانية بخفة على وسطها من الخلف، وراح يقودها عبر الموائد حتى وصلا الى باب المقهى وانتظرت هناك قليلا حتى دفع الحساب.
وصعدا الدرج، الى الشارع وسألها باي:

"هل قلت أنك تقطنين على بعد عدة مبان قليلة من هنا ؟"

وأدارت سابرينا رأسها نحوه وقالت مبتسمة:

"أجل.. يقع بيتنا على الطريق المؤدية الى الربوة العالية."

"هناك عزاء وحيد لعلاج مشكلة الربوات في سان فرانسيسكو. فحين تشعرين بالتعب من الصعود فانه يمكنك أن تستندي اليها."

وضحكت سابرينا من وصفه الرقيق، وأردف يقول في صوت خفيض:

"ضحكتك هذه علامة جيدة، فقد راودني التفكير في أنك فقدت قدرتك على الضحك منذ فقدت بصرك، ولكنني سعيد أذ خاب ظني."

بدا أن قلبها قد وثب من صدرها لبضع ثواني، واكتفت بأن تتمنى بألا يكون تعليقه ملاحظة عابرة، والتزمت الصمت. ويبدو أن باي كان يتوقع منها هذا الصمت فقال:

"سيارتي تقف بالقرب من المنعطف. دعيني أوصلك الى البيت."

كانت الفترة التي أمضتها خارج البيت قد جاوزت الساعة التي اتفقت عليها مع بيغي كولينز، ولهذا قبلت سابرينا، وأعطته عنوان البيت ذي التصميم الفيكتوري الذي يقع في قطاع باسيفيك هايتس. وكانت ساعة ازدحام المرور قد بدأت. واتخذت سابرينا من جلبة حركة المرور الصادرة عند التقاطعات مرشدا لها، فاستطاعت أن تحدد مكان البيت الذي تقيم فيه حين انعطف باي بسيارته. وقالت له:

"بيتنا هو المبنى المطلي باللون الذهبي الداكن، والمزين بخطوط بنية وبيضاء، وصعب على المرء أحيانا أن يتبين رقم المنزل."

وفي لحظات وقفت السيارة بمحاذاة الرصيف المواجه للمنزل، وجذب باي الفرامل، وأوقف المحرك. وما أن غادرت السيارة، والتف حولها، واتجه ليفتح الباب المجاور للمقعد الذي تجلس عليه سابرينا حتى سمعت جارتها تنادي:

"سابرينا... هل أنت بخير ؟"

وسارعت الجارة الى فتح الباب، وسمعت سابرينا خطواتها وهي تهرع نحوهما... لتقول لها:

"كنت لتوي قادمة لأعرف ما أذا كنت قد عدت الى المنزل أم لا، ظننتك نسيت الإتصال بي لتخبريني بوصولك."

قالت سابرينا:

"أمضيت وقتا أطول مما توقعت."

"هذا واضح."

وساد صوت بيغي نبرة غريبة، نمت عن أنها رأت الرجل الذي يصاحب سابرينا وتنتظر أن تقدمه لها:

"بيغي... أقدم لك باي كاميرون. وهذه السيدة كولينز... جارتي."

وتبادلا التحية قبل أن يوجه باي حديثه الى سابرينا ويقول:

"جاء دوري لأخبرك يا سابرينا... بأنه لا بد لي من الانصراف."

ومدت سابرينا يدها لتصافحه مودعة وقالت:

"أشكرك... لقد سعدت بذلك."

وشد على يدها بقبضة دافئة ثابتة، بالرغم من أن المصافحة لم تستغرق سوى وقت قصير، وأردف يقول:

"سوف أراك مرة أخرى في وقت آخر."

ورنت الكلمات في أذنها كأنها وعد منه، وتمنت أن يفي بوعده، وشعرت أن عجرفته التي شابت لقاءهما الأول قد تلاشت تماما، ولاح لها الموقف غريبا حقا، إذ تساءلت: كيف وثقت به هكذا سريعا؟ كانت مستغرقة في تفكيرها حين سمعت باب السيارة يفتح ثم يغلق، والمحرك يدور وعجبت كيف كانت تحادث باي بمثل هذه الحرية، التي ما كانت لتستطيع أن تتحدث بها حتى الى أبيها الذي هو أقرب الناس اليها. وانتشلتها بيغي كولينز من تفكيرها حين سألتها بفضول:

"أين التقيت به ؟"

قالت موضحة:

"يوم أن توجهت الى مرفأ اليخوت مع ديبورا لنصحب أبي الى المنزل."

ونسيت لوهلة أن جارتها كانت تقف الى جوارها، ثم أردفت تقول:

"من ذلك اليوم التقيت بذلك الرجل الطيب.. أعني.."

ثم توقفت عن مواصلة الحديث وهي تتابع برأسها صوت رحيل السيارة حتى غابت عن مسامعها، ثم استدارت الى المرأة العجوز وسألتها:

"بيغي... كيف تبدو ملامحه؟"

وتمهلت المرأة قليلا لتستجمع أفكارها ٠٠ ثم قالت:
"إنه طويل القامة٠٠ يقترب عمره من الثلاثين، شعره أحمر داكن، عيناه بنيتان٠ لا أقول أنه وسيم، أو بهي الطلعة ولكنه يبدو رجلا بمعنى الكلمة٠٠٠ هل تعرفين ماذا أعني؟"
أجابت سابرينا بنعومة:
"أجل٠٠٠ أجل٠٠٠ أعتقد أنني أعرف ما تعنين٠"
وادركت أن ملامحه قوية، مؤثرة وفجأة صرخت بيفي قائلة:
"يا الهي! لقد نسيت أن أضع البطاطا في الفرن٠ سأتحدث اليك فيما بعد يا سابرينا٠"
"حسنا٠٠ يا بيفي٠"
وعادت الجارة بسرعة الى منزلها، بينما كانت سابريد تستمع الى كلماتها بلا وعي!

٣ - الشعلة

سألت ديبورا سابرينا بحدة:
"هل ترغبين حقا في التنزه على رصيف الميناء؟"
فأجابت سابرينا وهي تنظر اليها:
"أجل٠ الا اذا رغبت في الانفراد بأبي بعض الوقت٠"
تنهدت ذات الشعر الأحمر في يأس وقالت:
"ليس الأمر كذلك، غرانت يقلق عليك، لأنه لا يوجد درابزين في الميناء ومن الطبيعي أن يهتم بسلامتك٠"
قالت سابرينا بهدوء:
"كل الاباء يقلقون على أولادهم ولكن قلق والدي يختلف عن بقية الآباء وله مبرر، وأنا لا أستطيع أن أقضي بقية عمري متحاشية فعل ما يسبب القلق لأبي٠"
"صدقيني لو استطعت أن أجد طريقة تخلصه من قلقه عليك لما ترددت في اتخاذها٠"
وكان جواب ديبورا مشوبا بالعصبية والتوتر، وهي تغادر السيارة التي وقفت في المكان المخصص لها في ميناء اليخوت٠ وغادرت سابرينا بدورها مكانها ببطء واستدارت حول السيارة حتى وصلت الى جوار خطيبة أبيها، وسألتها وهما سائرتان نحو أبواب السور:
"هل ذكر أبي شيئا عن موعد الزواج؟"
"لا٠٠٠ وأنا لم أطرق الموضوع معه٠"
وخيم الصمت للحظات قبل أن تواصل ديبورا الحديث:
"أعرف بأنني امرأة غيور حريصة على الاستئثار بمن

أحب. فاذا ما تزوجت أباك وأنت مازلت تقيمين في البيت، فلا بد أن ينشأ الاحتكاك بين ثلاثتنا، وسوف يكون في ذلك إساءة لنا جميعا. وما أعلمه عن شخصيتك هو أنك تحبين الاستقلال، وليست عندك أي رغبة في أن تكوني عبئا على أبيك بقية عمرك."

وتنفست سابرينا الصعداء وهي تعلم مدى صدق الكلمات التي تفوهت بها ذات الشعر الأحمر ثم قالت:

"ولهذا تستميلين أبي للأخذ بفكرة هذه المدرسة."

فقالت ديبورا:

"ربما لا تكون هي الحل يا سابرينا، ولكنها البداية."

ورفعت سابرينا رأسها وتركت النسمة اللطيفة التي تهب من المحيط تلفح وجهها وقالت:

"أحتاج الى الوقت للتفكير، ومازال الأمل يراودني في العثور على بديل آخر لا أعرف كنهه."

"إذن... فإن فكرة الالتحاق بالمدرسة موضع اعتبارك؟"

"من الضروري أن أضعها في اعتباري... سواء راقتني الفكرة أم كرهتها."

واضطرب صوت ديبورا قليلا وهي تقول:

"أشكرك."

ثم واصلت الحديث بعزم وتأكيد:

"أنا أحبك يا سابرينا... ولكنني أعشق أباك. لقد انتظرت طويلا قبل أن التقي برجل مثله. أرجوك حاولي أن تفهمي السبب في إصراري على أن تتركي البيت."

قالت سابرينا:

"أفهم ذلك تماما... لو كنت مكانك وأحببت رجلا فلا بد أن أكون قلقة مثلك للاستحواذ عليه لنفسي. ولكنني لن أندفع الى اتخاذ أي قرار مالم أكن على يقين من عدم وجود بديل له."

ولمست ديبورا بيدها مرفق سابرينا قائلة:

"اتجهي الى اليسار."

وكانت السيدة ذات الشعر الأحمر تدرك مدى عناد سابرينا، ورأت أن الوقت حان لكي تنهي مناقشة الموضوع برمته حين أدركت أن سابرينا ستفكر في اقتراحها.

وشعرت سابرينا برغبة ديبورا، لذا غيرت برضا تام موضوع الحديث فسألت:

"هل وصل أبي؟"

فأجابت ديبورا:

"أجل أنه ينزل شراع الزورق الآن."

وبعد مرور بضع دقائق نادت ديبورا قائلة:

"مرحبا.. هل أمضيت وقتا طيبا يا حبيبي؟"

"طبعا.. طبعا."

وكان صوت أبيها ينم عن السعادة والرضا مما أشاع الابتسامة على شفتيها، ووجه سؤاله الى ابنته:

"سابرينا.. لم أكن أتوقع رؤيتك مع ديبورا؟"

وبدا قلق باهت على وجهها، ولكنها استعادت ابتسامتها وقالت:

"إنه يوم جميل شجعني على عدم البقاء في السيارة. لا تقلق يا أبي فلن أضل الطريق أثناء سيري على الرصيف."

فقال:

"سألحق بكما بعد قليل."

وبادرت ديبورا لتقدم مساعدتها له قائلة:

"سأحضر بقية حاجياتك من القمرة، إذا شئت يا غرانت."

ولاحت على وجهه علامات التردد قبل أن يوافق على الاقتراح. كانت سابرينا تعرف أن أباها يعتريه القلق إذا تركها تقف وحدها على رصيف الميناء. وربما كانت موافقته دليلا على أن ديبورا ألقت عليه نظرة نمت عن مغالاة في حمايتها.

كان صرير الزورق يمتزج بصوت تلاطم المياه، بينما راحت أجنحة طائر النورس ترفرف فوق رأس سابرينا، وأخذت صرخاته تتناهى الى سمعها، ونسمات المحيط المعبقة برائحة الملح والسمك تداعب خصلة الشعر التي تتراقص فوق جبينها.

وداعبها إحساس لذيذ راح يدغدغ ظهرها، وفي الحال تنبهت سابرينا الى وقع أقدام تقترب منها، وحدثتها نفسها بأنها خطوات باي كاميرون، وراودها الأمل في أن يتحقق حدسها، ولكن يبدو أن شخصا آخر كان بصحبته، بل أكثر من واحد، وربما كانوا ثلاثة. وتبينت من وقع الخطوات أن بين الثلاثة سيدة...

حيا باي السيد لين وقال:

"لقد اكتفيت اليوم يا سيد كاميرون كيف حالك؟ هل أنت عائد من نزهتك أم لم تبدأ بعد؟"

فأجاب:

"سنقلع بعد قليل... رأينا أن نستمتع بغروب الشمس على المحيط."

تأكدت سابرينا من كلامه أن الخطوات الأخرى التي سمعتها كانت تصحب كاميرون الذي اتخذ مكانه الى جوارها، وشعرت بأنه يقف الى يسارها لا يفصله عنها سوى مسافة قصيرة للغاية وسألها:

"كيف حالك اليوم يا سابرينا؟"

فمالت برأسها وقالت وهي في كامل وعيها:

"بخير..."

وأحست بأن رفاقه يرغبون في مواصلة سيرهم، ولكنه توقف ليقول:

"أرى أنك نجحت في محاولتك السير على الرصيف هذه المرة دون أن يصيبك سوء. هل فعلت ذلك وحدك؟"

كانت كلماته ناعمة وخفيضة حتى أن النسيم الرقيق لم يستطع أن يحملها على أجنحته لشخص آخر سوى سابرينا. وتمتمت تقول دون أن تحرك شفتيها:

"لا..."

وتناهى الى أذنيها صوت نسائي نافد الصبر يسأل:

"باي.. هل أنت قادم معنا؟"

فأجاب كاميرون:

"أجل يا روني.."

ثم التفت الى سابرينا ورفيقيها وقال:

"سأراكم مرة ثانية."

كان الوعد الذي ردده مبهما، وموجها الى سابرينا ورفيقيها. وقال أبوها:

"رحلة طيبة..."

أما سابرينا فلم تتفوه بشيء.

وران عليها اكتئاب باهت، ولكنه تفاقم حينما حمل الريح اليها تساؤل روني المتعالي عنها وعن أبيها، ولكن حدة سمع سابرينا لم تستطع أن تلتقط إجابة باي. واشتدت قبضة أصابعها على يد العصا البلوطية، وكانت سعيدة لأن عصاها لم تكن بيضاء، حتى لا يدرك أصدقاؤه أنها عمياء. فلن تحتمل نظرة الشفقة في عيونهم، وأحست بالضيق حين تصورت باي وهو يروي لهم قصة الحادث الذي تسبب في فقد بصرها. وتمنت لو لم تستجيب لدعوته الى تناول القهوة في

اليوم السابق، وليتها لم تبح له بمتاعبها، فسألت بجدية:

"هل أنت مستعد يا أبي؟"

فقد انتابها فجأة رغبة قلقة في الرحيل، ولم تجد أية متعة في رائحة البحر أو هديره. فأجاب أبوها:

"سآتي حالا... هل أحضرت كل شيء يا ديبورا؟"

قالت:

"نعم."

وبعد دقائق كان الاثنان يقفان الى جوار سابرينا، وأحاط كتفيها بذراعه، وعاد بها من حيث أتت. ولم تحاول أن ترفض مساعدته، لأنها كانت تبحث عن الطمأنينة والحماية تحت كنف ذراعه.

وعندما بلغت المنزل حاولت أن تسدل الستار على ذكرى يوم الأحد، لكن الذكرى بقيت ظلا يتراقص بالقرب من حدود عالمها المظلم. ولما كانت تتذكر مواقع قطع الأثاث في منزلها، فانها نجحت في أن تأخذ طريقها الى الاستريو، وتدير المفتاح لتسمع أنغام الموسيقى.

ودق جرس الباب الأمامي بصوت عال قطع عليها الصمت المطبق المحيط بها، وأطلقت زفرة ضيق من هذا الشخص الذي اقتحم عليها خلوتها. وسارت نحو الباب وقالت:

"نعم... من أنت؟"

سألت سريعا بعد أن عثرت أصابعها على المفتاح. فأجاب الصوت:

"باي كاميرون."

وران عليها هدوء تشوبه الدهشة، ظل بضع ثوان، ولم يكن صوتها مفعما بالدفء عندما سألته:

"ماذا تريد يا سيد كاميرون؟"

فأجاب بصوت مرح:

"إنني ما جئت لكي أبيع فرشاة أو بوليصة تأمين أو كتبا مقدسة، وانما أعتقد أن السبب الوحيد الذي يجعلني أقف أمام بيتك هو أن أراك."

"ولماذا تريد رؤيتي؟"

"إنني لا أريد أن أتحدث الى صناديق. هل تنزلين؟"

وتنهدت سابرينا باضطراب أمام نبرة الصوت المتحدي. فقالت:

"سأكون هناك خلال دقيقة."

وأدارت المفتاح، وفتحت الباب المؤدي الى السلم الذي يصل ما بين الطابق الثاني، ومدخل الشارع. وكان يوجد بابان عند السلم أحدهما يؤدي الى الكراج في الطابق الأرضي. وسارت أربع خطوات ثم توقفت، وكان باب حديدي على بعد قدم واحدة منها، يحول دون دخول المارة، وكان باي يقف وراءه. سألته سابرينا ببرود:

"ماذا تريد الآن... سيد كاميرون؟"

سألها بصوت ساخر:

"هل تسمحين لي بالدخول؟"

تخلت عن نزعة الحرب الصامتة. وفتحت له الباب وتراجعت الى الوراء وقد تشابكت أصابعها أمامها، وبدت عليها سمات الجد. ومالت برأسها في استعلاء مبهم عندما سألته:

"لماذا تريد أن تراني؟"

"لأن السماء صافية، والشمس مشرقة، والنسيم لطيف ودافىء ومثل هذا اليوم الجميل يصلح لرياضة المشي. وتوقفت لأسأل عما إذا كانت تحدوك الرغبة في أن تأتي معي."

وراودها الشك في اخلاص كلماته، ولم تستطع أن تصدق أن هدفه من سؤالها ينبع من رغبة حقيقية في اصطحابها. إنه يشعر بالاسف لها. قالت:

"أنا آسفة.. غير ممكن."

ورفضت طلبه باعتذار مهذب، فسألها:

"غير ممكن... لماذا؟"

فأجابت وهي واعية لصورة علامات التساؤل والكبرياء التي ارتسمت على حاجبيه:

"لأنني أقوم بإعداد طبق من اللحم المشوي للعشاء، ويجب أن أضعه في الفرن.."

وأخذت تتحسس بأصابعها الأرقام المجسمة الموجودة على ميناء الساعة، ثم أردفت تقول:

"خلال خمسة وأربعين دقيقة، فإذا مشيت معك، فلن نقطع مسافة تذكر، وسوف نضطر الى العودة سريعا، وبعد انقضاء ساعة لابد أن أضيف البطاطا والجزر والبصل."

"هل هذا هو عذرك الوحيد؟"

فقالت له بحزم:

"إنه عذر مقبول."

"إذا كنت تتذرعين بهذا العذر الوحيد فهناك حل، أن تفرغي من أعداد اللحم المشوي، سأقوم بضبط الساعة لكي يشرع الموقد في العمل بعد خمسة وأربعين دقيقة. في وسعنا الآن أن نضع الطعام في الموقد، ونقضي ساعتين سويا في التنزه، قبل أن تعودي الى المنزل لتضعي بقية المواد."

وحاولت أن تعترض قائلة:

"ولكن.."

ولم تستطع مواصلة عبارتها، لأن عقلها كان صفحة بيضاء.. فسألها:

"ولكن ماذا؟ هل ترغبين في التمتع برياضة المشي؟ انه يوم جميل، يجب أن لا نقضيه في البيت."

وتنهدت في سخط، واستدارت نحو الباب وهي تقول:

"آوه... حسنا."

وسمعت جلجلة صوته الساخر من موافقتها المتأرجحة، وهو يقول لها:

"أدهش كثيرا من أنك تتكرمين علي دائما بقبول دعواتي."

وأجابت عليه بنبرة حادة:

"ربما لأنني اود أن أبحث عن جواب شاف لتقديمك هذه الدعوات."

وسبقها ليفتح لها الباب قبل أن تبحث بيدها عن المقبض، ثم قال لها:

"لأنك اذا توقفت عن اتخاذ موقف المدافع عن نفسك كإنسانة عمياء، فإن صحبتك تبعث على السرور."

ومرة أخرى شمخت سابرينا برأسها في هدوء، عندما تذكرت الوقت الطويل الذي أمضته وهي تبكي حظها. ولما كانت قد بنت حياتها ومستقبلها على أساس قدرة عينيها على رؤية الأشياء التي ستقوم يدها برسمها، فإنه من الطبيعي أن تشعر بالمرارة من ظلم القدر لها. وحتى باي نفسه اعترف بذلك، وإذا كان أقر الأمر فماذا يملك من حق لكي يدينها به؟

وأخيرا سألها:

"هل أنت مستعدة للرحيل؟"

"يجب أن أتصل هاتفيا بأبي."

قامت بحركات تنم عن عصبيتها وقالت:

"عندما تغادر جارتنا بيغي كولينز منزلها، فإن أبي يجب أن يعرف أين أذهب ومتى أعود."

فقال لها ساخرا:

"وخاصة أذا لقيت مصرعك على يد راكب دراجة بخارية لم تكن في حسبانك".

وشدت شفتيها فاتخذا شكل خط مستقيم ثائر، وهي تشيح بوجهها بعيدا عنه، ثم تمتمت ساخرة:

"بالتأكيد تشير الى العصا البيضاء. أليس كذلك؟"

ووافق في تراخ وقال:

"أعتقد ذلك أذهبي واتصلي بأبيك هاتفيا".

"شكرا لك.. سأذهب بعد أن منحتني الإذن".

أخبرت سابرينا أباهاسريعا بأن بيفي غير موجودة في منزلها وأنها تتحدث اليه لتعلمه بأنها سوف تغادر المنزل لفترة، ولكنها لم تذكر له مع من. فسألها غرانت لين:

"كم من الوقت سوف تمكثين خارج البيت؟"

فقالت له:

"ساعتين... سأتحدث اليك بمجرد عودتي".

"أعرف أن الجو صحو، ولكن هل أنت مضطرة الى البقاء خارج البيت كل هذا الوقت؟ فأنا لا أرحب بفكرة تجوالك في الطريق وحدك".

"ساكون بخير".

وران عليها قلق غريب منعها من أن تخبره بأنها ستكون في صحبة باي كاميرون، ثم أردفت تقول ضاحكة:

"لا تبدأ في القلق".

وانتزع باي من يدها السماعة وحاولت أن تنتزعها لكن يدها اصطدمت بجدار صدره، فتراجعت أصابعها وكأنها اشتعلت بالنار وسمعته يقول:

"السيد لين. أنا باي كاميرون... سابرينا ستكون في صحبتي. ستعود ابنتك وقت يسمح لها أن تعد لك فيه طعام العشاء".

وعندما أبلغه أبوها بموافقته قال له باي وداعا، ثم وضع السماعة في مكانها، بعد أن التفت نحوها ليقول:

"أبوك يتمنى لك وقت طيبا".

فتمتمت قائلة شكرا، ثم سارعت الى الخزانة لتأخذ معطفها الخفيف، وحملت عصاها من فوق حامل المظلات. وسمعت باي وهو يفتح الباب فسارعت تمر من خلاله، وأنصتت وهو يوصد الباب وراءها قبل أن يقتفي خطواتها تهبط درجات

السلم وقال لها:

"فكرت أن نستقل حافلة هايد ستريت لنبلغ ميدان جيراردلي. هل توافقين؟"

وكان المرح يشوب نبرة صوته، فهزت كتفيها باستخفاف وقالت:

"لك ما تريد".

لم يضف كلمة أخرى لكلامه، ولو لم يمسك مرفقها أثناء عبور تقاطع المرور، لكان في وسعها أن تسير وحدها حتى تبلغ موقف الحافلة. وفيما عدا كلمة شكرا التي قالتها له وهو يعينها على صعود الحافلة والهبوط منها، فإنها لم تتفوه بكلمة أخرى معه.

"ألم تتخلصي بعد من عبوسك؟"

سألها وهو يخفي ضحكته، بينما أمسكت قبضته الحازمة بوسطها حتى يستطيعا اختراق جحافل السياح الذين يعبرون الطريق. وردت سابرينا عليه ببرود:

"أنا لست عابسة".

فقال ساخرا:

"أحقا ما تقولين؟"

قالت ومازالت مسحة من الغضب مرتسمة على وجهها:

"ربما قليلا، ولكنك تتخذ أحيانا مظهر رئيس العمل الذي لا يمكن احتماله".

فقال لها:

"ان عنادك فاق الحد مؤخرا والناس الذين اعتادوا الاهتمام بك لا يحبون التفوه بكلمة لا".

"ونفس الشيء يمكن أن يقال لك".

"إنني واثق أن هذا ليس بصحيح".

وأدركت سابرينا قبوله المتراخي لنقدها، ثم أردف يقول:

"لم يكن الحديث عني، إنما كنا نتحدث عنك وأنت عابسة".

فأجابت قائلة:

"لأنك تناقش الأمور، وتدير دفتها دون أن تسألني".

"وما رأيك في الموقف الآن؟ هل تعلنين حالة الحرب أم نسير كأصدقاء؟"

وكانت تشعر بعينيه وهما مسلطتان على وجهها، عندما استطرد يقول:

"لم تكن الحالة بهذه الصورة السيئة عندما سرنا سويا

في المرة السابقة."
وأطلقت سابرينا زفرة عميقة، وشعرت بنفسها تستسلم الى جمال صوته الخفيض، فقالت له:
"نسير كأصدقاء."
واستسلمت سابرينا، ورأت أنه من السهل عليها أن تدع نفسها تتمتع بدفء قدرته على الاقناع، وهو يدير برقة دفة الحديث الذي يناقش الموضوعات التي لا تحتاج الى جدال. وقاما بجولة حول النافورة الواقعة في الساحة الرئيسية لمصنع شكولاته جيراردیلی القديم، الذي تجدد بعد تحويله الى حانوت. وتوقفا أمام مقهى في الهواء الطلق، وتناولا بعض الفطائر الرقيقة المحلاة الطازجة. ثم تابعا السير بجوار نوافذ الحوانيت الكثيرة التي تقع تحت المباني المطلة على الميدان. وتحداها باي في أن تقوم بتحديد نوع الحانوت عن طريق الصوت أو الرائحة. ونجحت في محاولتها عندما وقفت أمام محلات الزهور والجلود، وحددت أنواع الأكلات التي تقدم في المطاعم المختلفة، ولكنها فشلت تماما إزاء حوانيت المجوهرات والهدايا ومخازن الاستيراد. وتوقفت أمام نافذة حانوت وأطلقت زفرة مقهورة، وقالت:
"حقا بدأت الآن أفقد قدرتي على التخمين. أرجوك لا حاجة بي لمزيد من الامتحان."
واستجاب لطلبها، وقال وهو غائب عن الوعي:
"لا حاجة بك الى تحديد نوع الحانوت الذي نتطلع اليه. إننا نقف الآن أمام بيت أزياء يضع لافتة تحمل اسم أزياء راقية تقدمها جاكوبينا. إنني أرى ثوبا في نافذة العرض، وأقسم لك أنه أعد خصيصا لك. هيا بنا.."
وفجأة أطبق بذراعه بشدة حول وسطها، وهو يقول لها:
"سندخل الحانوت، لتشاهدي الثوب."
وفي الحال توترت أعصاب سابرينا، وقالت له بحدة:
"أنت تتغاضى عن حقيقة واضحة للعيان وهي أنني امرأة عمياء، ولا أستطيع أن أرى الثوب."
فقال بصبر:
"أنا لم أتغاض عن شيء.. يا مليكتي العمياء، وفي وسعك أن تمسحي من مظهرك الكبرياء الذي ارتسم على وجهك. أين ذلك الخيال الخلاق الذي كنت تفخرين به في اليوم السابق؟ سأقودك الى داخل الحانوت، وسوف ترين الثوب بيديك."

وانتابها إحساس بالتأنيب، ودوى جرس صغير فوق رأسيهما، عندما اجتازا الباب، وفي الحال بدأت خطوات أقدام تقترب منهما قادمة من نهاية الحانوت، وسأل صوت نسائي:
"هل من خدمة أقدمها؟"
أجاب باي:
"أجل... نود رؤية الثوب الموجود في نافذة العرض؟"
قالت السيدة بأدب:
"إننا لا نبيع هنا ثيابا جاهزة، انه نموذج نصنع مثله طبقا لمقاسات الزبونة."
قال باي بصوت يتسم بنعومة خلابة:
"دعيني أشرح لك ما أعني. الانسة لين عمياء.. وأنا أعجبت بالثوب المعروض في النافذة، وترغب في رؤيته، ولكي تفعل ذلك لابد أن تلمسه، هل هذا ممكن؟"
استجابت المرأة بسرعة وقالت بدفء:
"طبعا، أنا آسفة. لن يستغرق الأمر سوى بضع دقائق لكي أرفع الثوب من فوق الموديل."
وتناهى الى سمعها صوت صادر عن حركة ثوب عقب حديث المرأة، وشعرت سابرينا بيد باي تضغط على وسطها ليهدىء من روعها، وبعد مضي عدة دقائق اقترب منها حفيف الثوب، وقالت البائعة:
"اليك الثوب يا آنسة لين."
وسألها باي:
"هل يمكنك أن تصفيه لها؟"
فأجابت العاملة:
"بالطبع. الآنسة جاكوبينا تطلق عليه اسم الشعلة لأن الوانه الأحمر والذهبي والبرتقالي والأصفر تتماوج بتماوج طبقات الشيفون السباعية الشكل والمعقودة على أطرافه، فتبدو للعيان أشبه بألسنة النار المشتعلة."
وصمتت العاملة قليلا، بينما راحت أصابع سابرينا تتحسس أطراف الطبقات العديدة. وقطعت العاملة الصمت لتواصل الوصف:
"إن قصة الرقبة على شكل سبعة، كما أن الأكمام قد حيكت بالشيفون على شكل سبعة، وزينت الأكتاف والصدر

أيضا بالشيفون•"
وواصلت أصابع سابرينا اكتشاف باقي أجزاء الثوب، بعدها استطاعت تكوين صورة عنه بمساعدة الوصف الذي أدلت به العاملة• وفي النهاية تمتمت سابرينا:
"ثوب جميل!"
وسأل باي العاملة:
"ماهو مقاس الثوب؟"
ولما أخبرته العاملة بالمقاس التفت باي الى سابرينا وسألها:
"هل يناسبك الثوب يا سابرينا؟"
فأومأت سابرينا برأسها وقالت:
"أظن ذلك•"
فسأل العاملة:
"هل تتجاوزين القواعد، وتسمحين لها بقياس الثوب؟"
وكانت نبرة صوته بالغة الإقناع لدرجة أن سابرينا كانت واثقة تماما من أن أحدا لا يستطيع أن يرفض طلبه• وتنهدت العاملة بعمق ثم ضحكت وقالت:
"لاأعتقد أن هناك أي مانع• لدينا غرفة لتبديل الثياب تقع في مؤخرة الحانوت• آنسة لين•• يمكنك أن تأتي معي•"
ترددت سابرينا في بادىء الأمر ولكن باي حثها على أن تتقدم وقال لها:
"اذهبي•• واعرفي كيف يبدو الثوب عليك•"
وتنهدت ثم قالت:
"لماذا تركتك تدفعني الى مثل هذه المواقف؟"
فقال لها:
"سوف تستمتعين بهذه المواقف كلما غصت الى أعماقها، وأراهنك أنك لم تشتري ثوبا جديدا منذ الحادث•"
وعارضته سابرينا معارضة ضعيفة، ثم قالت:
"إنني لا أحتاج شيئا البتة•"
فقال باي ساخرا:
"ومتى كان ذلك عذرا قويا تتمسك به المرأة؟ الآن•• توجهي الى الغرفة وحاولي ارتداء الثوب هذا أمر•"
قالت:
"سمعا وطاعة•• يا سيدي•"
ولم تكن سابرينا في حاجة الى أن يجبرها على فعل

شيء، وكانت صورة الثوب التي ارتسمت في عقلها، وملمسه الثمين، قد أثاراها مما جعلها لا تحجم عن ارتدائه، ولو لم تستطع أن تعرف النتيجة• ولكنها أسرعت تخلع ثوبها الرياضي، لترتدي الثوب الفاخر• ولم تطلب أي معونة من العاملة الا عندما ارادت جذب السحاب• وألقت براحتها على ذراع العاملة وتحركت بعصبية نحو مدخل الحانوت حيث كان باي في انتظارها• وقالت لاهثة الأنفاس:
"حسنا•••؟"
وخيم صمت فوق احتمال البشر دام فترة طويلة، مالت خلالها سابرينا برأسها جانبا استعدادا للانصات، فقال باي ببساطة:
"أنت في أجمل صورة يا سابرينا•"
وشاركت العاملة في الحديث وقالت:
"يعجز اللسان عن الوصف• أنت تديرين الرؤوس• لا أقول ذلك لأنني أعمل هنا، ولكن الثوب صمم خصيصا لك• الموديل مناسب لك تماما، واللون مدهش للغاية• أنت لديك نفس مقاسات الموديل التي صمم عليها الثوب•"
ومرت سابرينا بأصابعها سريعا على فتحة الثوب، ثم سألت وهي تتحسس طيات الشيفون الشفاف:
"هل يمكنك•• هل أنت مستعدة لأن تبيعي هذا الثوب؟"
قالت العاملة:
"ليس المعتاد••"
وتوقفت قليلا عن مواصلة الحديث، ثم أردفت تقول وعلى شفتيها ابتسامة مستسلمة:
"دعيني أسأل•••"
وعندما رحلت العاملة استدارت سابرينا نحو باي وسألته بقلق:
"هل أنت متأكد أن شكل الثوب جميل؟"
فاشعل سيكارة وسألها:
"هل أنت في حاجة الى مزيد من الاطراء؟"
وأنكرت قائلة:
"لا••"
ومرت بيدها سريعا على وسطها، وراحت تتأمل بعينين غير مبصرتين الطيات السباعية المتماوجة فوق ذراعها• وواصلت تقول:

"لأنني لا أستطيع أن أكون إيجابية.
وانتقل الى جوارها بخطوات أشبه بخطوات القطة، ورفع ذقنها بأصابعه وقال لها:
"كوني إيجابية، لأنني أخبرتك بالحقيقة، أنت جميلة في هذا الثوب.
وتمنت في هذه اللحظة أن ترى التعبير المرسوم على وجهه، في حين أنها لم تشك في الاخلاص في صوته، ولكن إحساسا خادعا راح يصور لها بأن باي بعيد عنها. وكانت خصلة من شعرها الأسود تخفي تقطيبة ارتسمت على جبينها.
فسألها باي قائلا:
"ماذا يضايقك الآن؟
فقالت:
"أنا.. أنا أتساءل متى سأرتدي هذا الثوب؟
وكانت سابرينا تثير حقيقة في أوانها، ولكن باي أجاب بنبرة متغاضية:
"ستأتي المناسبة التي تتطلب منك ارتداء الثوب، وحينئذ ستشعرين بالسعادة لأنك قمت بشرائه..
وتمتمت قائلة:
"لم أسأل عن ثمنه؟
وتوقفت عن المضي في الكلام، إذ فطنت لشيء ضايقها ولكنها استجمعت نفسها وقالت:
"ليس معي نقود الآن. هل تعتقد أنني استطيع أن أقدم لهم بعض المال تحت الحساب ليحجزوا لي الثوب، وسوف آتي أنا وأبي فيما بعد لسداد باقي الثمن؟
واقترح باي عليها قائلا:
"أستطيع أن أدفع ثمنه.
وعضت سابرينا شفتها السفلى... كانت شغوفة بشراء الثوب الذي ارتدته، ولكنها غير راغبة في أن تلزم رجلا غريبا بالدفع.. وفي نفس الوقت ليس بغريب. وكان قبولها للعرض يشوبه التردد فقالت له:
"إذا لم تشعر بالضيق.. اكتب لي عنوانك، والمبلغ الذي دفعته وسوف أطلب من أبي أن يرسل لك الليلة شيكا بالبريد.
"هل ترفضين قبول الثوب هدية مني؟
وتراجعت سابرينا الى الوراء وقالت:
"لا أقبله.

ثم هزت رأسها بحزم، واستعدت لمناقشة الموضوع مناقشة طويلة إذا حاول من جانبه أن يجبرها على قبوله. ونفث دخان سيكارته في اتجاهها وهو يقول:
"لم أفكر أبدا في أنك ستتقبلين.
وبدا صوته غاضبا، ثم استطرد يقول:
"حسنا.. سأقدم لك المبلغ دينا عليك.
وتنفست سابرينا الصعداء وقالت:
"أشكرك.
ومن ثم قدم لها اقتراحا.. قائلا:
"بدلا من أن يرسل لي أبوك شيكا بالبريد، هل لديك أي مانع من أن أمر لعندكم في البيت بعد ظهر يوم الجمعة؟
ولاح على وجهها التجهم وقالت:
"إذا أحببت...
"بالتأكيد هذا ما أريد.
وعادت الفرحة الى صوته، ومنحته بدورها ابتسامة مرحة.
وأقبلت العاملة وأخبرتهما بأن المحل على استعداد لبيع الثوب، ولم يكن الثمن باهظا كما كانت تتوقع سابرينا، وعندما ارتدت زيها الرياضي كان باي يقوم بدفع الثمن.
ولما غادرا المتجر أخبرها بنبأ سيء: انقضت الساعتان وحان الوقت لأن يعود بها الى المنزل. واقترح عليها أن يستقلا سيارة أجر بدلا من القطار الكهربائي ثم مواصلة السير على الاقدام. وكانت سابرينا تحدوها الرغبة في أن تطيل فترة الوقت التي تمضيها خارج البيت، ولكنها أحست برغبته في عدم التأخير.. لذا وافقت على اقتراحه.
وردد باي كلامه ثانية قائلا:
"سأراك في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة.
وتوقف بعد أن اجتاز الباب الحديدي، فسألته:
"هل تحب أن تدخل معي لتتناول القهوة؟
ورفض دعوتها ولكنه استدرك قائلا:
"سأحتفظ ببطاقة الدعوة مفتوحة ليوم الجمعة.
ووافقت سابرينا وعلى شفتيها ابتسامة آسفة:
"حسنا... الى اللقاء يوم الجمعة.

٤ - العصا العاجية

لمست سابرينا بأصبعها ميناء الساعة، وعرفت أنها تشير الى الثانية، وتأكدت أن الشيك مازال فوق مائدة القهوة حيث تركه أبوها في الصباح. واتكأت على الوسادة الموضوعة على الاريكة، ودعكت ظهرها لتسترخي عضلاتها المشدودة، وكان من الجنون أن تصل حالتها الى هذا المدى من الاضطراب والتوتر، بسبب قدوم باي كاميرون. هكذا سابرينا نفسها عندما دق جرس الباب الأمامي، فهرعت الى البهو لتسأل بلهفة:

"من بالباب؟"

"باي كاميرون."

"أنا قادمة حالا."

وكادت سابرينا أن تطير فرحا، وهي تهبط درجات السلم، وشاعت ابتسامة على وجهها وهي تفتح الباب. قالت له:

"وصلت في الموعد تماما."

"أحاول دائما المحافظة على مواعيدي."

وسبح دفء صوته في الهواء حتى مس وجهها وهي تفتح البوابة التي راحت تجلجل بصريرها قالت له:

"أعددت القهوة... إذا كانت لديك فسحة من الوقت للبقاء معي؟"

فأجاب باي:

"لدي بعض الوقت."

وقادته... وهي تصعد درجات السلم الى الطابق

الثاني حيث توجد غرفة الجلوس، وعندما بلغت الغرفة قالت له:

"خذ مكانك حتى أحضر صينية القهوة. الشيك الخاص بثمن الثوب موجود على المنضدة التي تقع أمام الأريكة."

ولم يحاول باي أن يقدم لها يد المساعدة وهي تصب القهوة، وتناول الفنجان الذي قدمته له، وأشار حفيف الوسائد الصغيرة الى أنه استند بظهره على الكرسي الذي يقع الى جوار الأريكة. وسألها:

"لديك بيت جميل. هل هذه اللوحات المعلقة على الجدران لك؟"

"أجل."

وأقرت كلامه وهي تبذل جهدها في أن تثبت الفنجان. وبعد ذلك استطردت تقول:

"أبي يحب المناظر الطبيعية، ولهذا اختار هذه اللوحات للبيت. ولعشقه العظيم للبحر كانت اللوحات تعبيرا صادقا عن مشاهد مختلفة للمحيط."

"هل هذه هي مجموعتك الوحيدة التي بقيت من اللوحات؟"

ومالت سابرينا برأسها، وزمت على فكيها وقالت:

"لا..."

وسألها هل يمكن رؤيتها في وقت آخر؟"

وابتلعت سابرينا ريقها، ورفعت رأسها في كبرياء:

"أفضل ألا تراها."

وهز منكبيه باستخفاف:

"لن أصر اذا كنت لا ترغبين، ولكنني أتمنى لو أعرف سبب رفضك في أن أراها، وخاصة أنني رأيت من قبل عدة نماذج من أعمالك. لماذا ترفضين أن أرى بقية أعمالك؟"

وتململت سابرينا بقلق وهي تقبض على الفنجان، ثم وضعته على المائدة، وهي تحاول أن تتخذ مظهر عدم الاكتراث:

"سأريها لك."

ولم تكن واثقة من أن نبرة صوته المرحة، أو استدراكها لوعيها كانا سببا في تغيير رأيها، إذ وقفت وأدارت رأسها في اتجاه مقعده، وقالت له:

"اللوحات موجودة في الاستوديو بالطابق العلوي."

ووقف باي بدوره وقال لها:

"تقدمي في الطريق."

وصعدت درجات السلم الى الطابق العلوي، وتحسست بيدها الجدار حتى بلغت الباب الثاني. وعبقت رائحة الألوان الزيتية حولها، ودخلت الغرفة ووقفت أمام الحائط ثم قالت:
"لم أعد أستعمل الغرفة، ولا عجب أن شعرت بالضيق منها".
ولم يبادر باي بالتعليق على كلامها، ورأى أنه في غنى عن ذلك وكانت تسمع أصواتا هادئة وهو يقوم بجولته في أنحاء الغرفة، ثم يتوقف أحيانا ليلقي بنظرة ملية الى شيء اختطف بصره، وفي مرات أخرى كانت تسمعه وهو يحرك الأقمشة المرسومة ليرى اللوحات التي تقع وراءها. وقال لها:
"كل هذه اللوحات جميلة للغاية... يا سابرينا".
وأدارت رأسها في اتجاه صوته الذي تناهى اليها عن بعد عدة أقدام من المكان الذي وقفت فيه، وكان قريبا من الباب، ثم استطرد يقول:
"من المؤسف أن تحتفظي بهذه اللوحات مخبأة في هذه الغرفة".
وابتلعت الغصة التي تعلقت بحلقها، ثم قالت:
"اتفقت مع أبي على أن نبيع هذه اللوحات.. يوما ما".
"هل سبق لك أن صنعت تمثالا من الصلصال؟"
"لا... فقد اعتدت أن أقوم برسم أي شخص واقف أمامي".
فبادر باي يشرح لها قائلا:
"أقصد النحت".
وتحرك باي بخطوات هادئة متأنية حتى وقف الى جوارها. ولمست يده بخفة ذراعها ليدير جسمها نحو الباب المفتوح. وقالت:
"أجل عندما كنت أقوم بدراسة الوسائل المختلفة للتصبير الفني. ولكن علام سؤالك؟"
"هل يمكنك أن تستأنفي الآن العمل بهذا الأسلوب الذي يناسب فتاة عمياء مثلك؟"
هزت رأسها وقالت:
"لا...".
وسمحت له بأن يقودها الى الردهة وهي شبه غائبة عن الوعي. كان تساؤله غير متوقع فأطلقت العنان لأفكارها، ولكن صوت أغلاقه الباب أعادها الى دنياها.
ولم يتطرق الحديث الى موضوعات اللوحات عندما تركها باي تهبط أمامه درجات السلم، وتعمد أن يتيح لها

الوقت لتفكر بالامر دون أية محاولة منه للتأثير عليها. وبالرغم من وجود الرغبة الداخلية التي تجعلها ترفضه أية فكرة تدعوها للاشتغال بأي عمل آخر غير ميدان الرسم الذي اختارته، فان الاقتراح كان بمثابة البذرة التي وجدت التربة الخصبة الصالحة لزراعتها.
قال باي وهو يتناول من يدها فنجانا مملوءا بالقهوة الساخنة:
"أريد أن أسأل، فيما اذا كنت مشغولة مساء الغد مع أبيك؟"
وكانت تمسك بفنجان مملوء بالقهوة الى منتصفه، وارتج في يدها، وأجابته متسائلة باستغراب:
"لا... أبي يمضي ظهر ومساء يوم السبت مع ديبورا. لماذا تسأل؟"
فأجاب باي بنعومة:
"فكرت في أن نتناول العشاء في أي مكان. وستكون فرصة ترتدين فيها ثوبك الجديد".
ورفضت.. قائلة باقتضاب مفاجيء:
"كلا... أشكرك".
"هل انت مشغولة؟"
"كلا...".
سألها وهو غير حافل تماما برفضها البارد:
"إذن هل يمكنني أن أسألك لماذا ترفضين تناول العشاء معي؟"
قالت:
"ربما...".
وتوقفت عن مواصلة الحديث وقد رفعت رأسها في كبرياء، ثم وضعت فنجان القهوة فوق الطبق، وأسندت ظهرها الى الاريكة، واستطردت تقول:
"إنني لا أتناول الطعام في مطاعم عامة، حيث ترتطم يداي بالأكواب، ويسقط الطعام مني على الأرض. إنه أمر يدعو للخجل...".
فعاد باي يقول:
"إنني علي أستعداد لتحمل المغامرة".
قالت وقد نفذ صبرها:
"حسنا. أما أنا فغير مستعدة".
وتناولت رشفة من القهوة، واحست بلسع سخونته

على لسانها. فقال لها بصوت يشوبه المرح:
"ما رأيك في شراء القريدس والكابوريا من حانوت المرفأ، والخبز والسلطات بكل أنواعها، ثم نذهب الى قضاء رحلة خلوية في مكان ما يقع على شاطيء منتزة الباب الذهبي."

وترددت سابرينا قليلا، وبدا الاقتراح مسليا، ولكنها لم تكن واثقة من أنها سوف تقبل دعوته. واكتشفت أنها تحبه، وراودها هذا الشعور خلال اللحظات التي كانت تغضب فيها من كبريائه، ومع ذلك ساورها الشك في أن الصداقة الدائمة يمكن أن تنمو وتزدهر بينهما. فسألها باي:
"هل هي دعوة صعبة لا يمكن قبولها؟"

وكانت سخريته رقيقة جعلتها تشعر بأنها حمقاء. وبأنها كانت تبالغ في أهمية الدعوة حتى بدت في صورة أكبر من حجمها، فاحمر وجهها وهمست:
"ليس الأمر صعبا."

ومالت برأسها نحو الفنجان الذي وضعته، لتخفي علامات الحيرة التي لاحت على وجهها، ثم استطردت تقول:
"أقبل دعوتك."
"هل تناسبك الساعة السادسة، أم أنك تفضلين قدومي في وقت مبكر؟"
"السادسة وقت مناسب."

ودوى فجأة صوت ارتطام جسم بالارض، فرفعت رأسها فزعة وقالت:
"ما هذا؟"

فأجاب باي قائلا:
"انه شيء صغير اشتريته لأقدمه هدية لك. كنت أنوي إعطاءه لك في وقت مبكر إلا أن الحديث أنساني. كنت قد أسندت الهدية على المقعد، ولكنني دفعتها عفوا فسقطت على الأرض. اليك الهدية."

ووضع باي صندوقا طويلا ونحيلا في حجر سابرينا بعد أن رفعت الفنجان ووضعته فوق المنضدة، واسترخت يداها بلا حراك فوق البطاقة.

وسألته بقلق:
"لماذا اشتريت لي هدية؟"

فقال:
"لأنني رغبت في... ولكن أرجوك ألا تعيديها لي لأنها لا

تفيدني أو تفيد أي شخص آخر. وأشك في إعادتها للمتجر."

ومالت سابرينا برأسها نحوه في تعجب وسألته:
"ما هي الهدية؟"

فأجاب باي:
"افتحي الصندوق وسوف تعرفين فحواه بنفسك."

وبدت آثار الاضطراب العصبي واضحة عليها، وهي تفض الشريط الذي يحيط بالصندوق، ثم وضعتها على الأريكة، وأحست بنظراته وهي تراقبها، فازداد نبض قلبها ولامست أصابعها المترددة نسيج الورق الذي أصدر حفيفا رقيقا وهي تبعده لتعرف ماذا يخفي تحته.

كان الجسم الموضوع في الصندوق مستديرا وصلبا، اسطواني الشكل، غير محدد المعالم، وشعرت سابرينا باستطالته فالتفت يدها حوله لترفعه من الصندوق، ولكنها تركته بغتة في مكانه، وقبضت يدها بشدة وهي تضعها في حجرها. واعتصر معدتها ألم حمضي عندما سألته في اتهام قاس:
"هل هي عصا بيضاء؟"

فأجاب باي وصوته خال من أي إحساس باللوم أو التقريع:
"أجل، ولكنني أحب أن تعرفي أنها ليست عصا بيضاء عادية."

ونقل الصندوق من فوق حجرها جانبا وأطبقت على شفتيها بشدة وتشابكت يداها في قبضة مستميتة، إلا أن أصابع باي أطبقت على رسغيها لتفرق بينهما، وهو غير مكترث بالمقاومة التي تبذلها للحيلولة دون نجاح غرضه.

وأطلق سراح إحدى اليدين بينما أمسك الأخرى بمجهود قليل، ودفع بمقبض العصا الى راحتها وأجبر أصابعها على الالتفاف حوله، وكان السطح الأملس الناعم هو أول انطباع عن العصا، ثم لمستها الحساسة جعلتها تشعر بالنقوش التي زينتها، واكتشفت أطراف أناملها تصميم هذه النقوش، وانقضت بضع دقائق تابعت أصابعها الخطوط الحلزونية الدقيقة التي امتدت عبر العصا حتى نهاية المقبض. حيث استطاعت أن تحدد معالم تصميمه الذي أعد على شكل رأس التنين.

وقال باي موضحا:
"أنها عصا صنعت من العاج، رأيتها في نافذة محل

تحف صيني من عدة أيام٠"
فقالت سابرينا مترددة:
"إنها جميلة للغاية٠ لا بد أنها ثمينة، لا أستطيع قبولها٠"
واسترخت قبضته على يدها، ولم تعد تجبرها على مسك العصا، ولكنها ظلت في موضعها لبضع دقائق حتى يتبين تصرفاتها، واستطردت سابرينا تقول:
"لابد أنها ثمينة٠ لاأستطيع قبولها٠"
وتجاهل اليد الممدودة بالعصا وقال:
"أن التصميم رائع ولكن من الصعب أن نعتبرها قطعة فنية٠ أنت ترفضين قبولها لأنها بيضاء٠٠٠"
قالت:
"لا أستطيع قبولها٠"
فقال لها باي بهدوء:
"وأنا لا أستطيع أن أعيدها٠"
فقالت٠
"أنا آسفة٠٠"
ودفعت العصا الى يديه وتركتها، ووجد نفسه مجبرا على أخذها٠ وعادت سابرينا تواصل الحديث:
"أعرف أنك كنت تحاول أن توليني كثيرا من أهتمامك ولكنك تعرف رأيي في موضوع العصا قبل أن تشتريها يا باي٠ حقا إن العصا فريدة من نوعها وجميلة، ولكنني لا أستطيع قبولها٠ أنا متريحة لعصاي٠"
"هل هذا جوابك النهائي؟"
"أجل٠"
أجابت سابرينا بحزم، وأصرت على عدم الاستسلام، أوَ حتى الشعور بالذنب لأنها رفضت قبول هديته، فتنهد باي قائلا:
"أعتقد أنني إذا واصلت محاولاتي إقناعك بتغيير رأيك، فإنك ستنقضين موافقتك على الخروج معي في مساء الغد٠"
وهزت كتفيها وهي تأمل ألا يضعها في موقف حرج، ثم قالت:
"من المحتمل٠٠"
"إذن سأوفر مناقشاتي الى وقت آخر٠"
وتردد صوت حفيف الورق، ووضع الغطاء على الصندوق، ثم واصل باي حديثه محذرا إياها بسخرية:
"تذكري٠٠٠ أني لم أستسلم بعد، وأنما أجلت المعركة٠"
فأجابت سابرينا بعناد، ولكن آثار ابتسامة ارتسمت

على شفتيها:
"لن أغير رأيي٠"
"وأنا قبلت التحدي٠"
واستطاعت أن تسمع إجابته الضاحكة في صوته، واستطرد يقول:
"هل أستطيع أن أتناول فنجانا آخر من القهوة ما دمنا نواصل مناقشة الشروط؟"
قالت وهي تقدم له الفنجان والطبق:
"طبعا٠٠"
ولم يتطرق الحديث بينهما ثانية الى موضوع العصا العاجية، ولكن بعد مضي نصف ساعة من رحيل باي كاميرون حاولت سابرينا أن تتأكد من أنه حمل معه الصندوق ولم يحاول نسيانه بطريق الصدفة، ولكنها اكتشفت الطريقة التي خدعها بها باي في المساء عندما عادت ديبورا، وسألتها بصوت يشوبه الفضول والدهشة:
"متى حصلت على هذه٠٠ ياسابرينا؟"
وتوقفت أصابع سابرينا التي كانت تتحسس الساعة، واستدارت برأسها في اتجاه صوت ديبورا وسألتها:
"ماهي٠٠٠؟"
"عصا عاجية٠ المقبض على شكل التنين ونقوش على الجوانب، عثرت عليها ملقاة على الأرض بجوار المقعد٠ هل تخفين عنا شيئا؟"
فقالت سابرينا بتجهم:
"لا٠٠٠" لم أحاول إخفاء شيء٠"
وهمست ديبورا قائلة:
"إنها لطيفة٠٠٠ أين عثرت عليها؟"
واشترك السيد لين في الحديث قائلا:
"أجل٠٠ أين عثرت عليها؟ لم أرها من قبل٠ هل هي الشيء الآخر الذي قمت بشرائه في اليوم السابق عندما كنت في صحبة باي كاميرون؟"
قالت سابرينا:
"يجب أن تعلم يا أبي بأنني لم أشتر عصا بيضاء، أو بالأحرى عصا عاجية أنها هدية قدمها لي باي، وطبعا رفضت قبولها٠ وظننت أنه حملها معه٠"
وسألتها ديبورا بتعجب:

"رفضت قبولها؟ لماذا رفضت شيئا جميلا كهذا؟"
فقالت سابرينا باستعلاء:
"لأنني لا أريدها."
وغاصت الوسادة الناعمة التي كانت تقع الى جوارها عندما القى أبوها بجسمه الثقيل عليها. ووضعت برقة أصابعها المتصلبة فوق غلاف الكتاب المغلق. وسألها أبوها بصوت رقيق:
"ألا تظنين أنك تصرفت بحماقة.. يا حبيبتي؟ كلانا يعرف تماما أنك رفضت قبول العصا لأنها بيضاء، ولم يكن رفضك لها لأنها غالية الثمن أو غير جميلة، أنت تعتقدين بأن العصا البيضاء تعلن للجميع بأنك فتاة عمياء.. ولكنك لا تستطيعين الهروب من هذه الحقيقة برفضك استخدام عصا بيضاء.."
فقالت باقتضاب:
"ولكنني لا أريد أن أعلن عن هذه الحقيقة."
وجادلها غرانت لين قائلا:
"لابد أن الناس تعرف... ولا أهمية لأي نوع أو لون تكون عليها عصاك. بحق السماء.... ليس هناك أي خجل من أن يكون الانسان أعمى."
فقالت سابرينا بسرعة:
"أنا لست خجلة من أمري."
فتنهد قائلا:
"أحيانا تتصرفين كما لو كنت خجلة."
فقالت متحدية مرفوعة الرأس:
"أعتقد أنك ترى أنه من المحتم علي استعمالها."
"أنا أبوك ياسابرينا. تخلصي من هذه الرجفة التي تعتري كتفيك."
وخففت نبرة التقريع اللطيفة التي شابت صوته من حدة بروز ذقنها فاستطرد يقول:
"أنت فتاة ناضجة فلا تجبريني أن أشير عليك بما يجب أن تفعليه، فانت قادرة على معرفة التصرف الصحيح والعاقل. وقبول العصا أو رفضها رهن بقرارك وحدك."
ووضعت سابرينا الكتاب على المنضدة، ووقفت قائلة:
"أستأذن في التوجه الى غرفتي."
وكانت تعرف أنه من الصعب عليها أن تستمر في المناقشة مع أبيها بالمنطق حيث تحس بالضياع.
وسألته ديبورا بتردد:

"ماذا أفعل بالعصا؟"
فأجاب الأب:
"ضعيها الآن في حامل المظلات، وفي وسع سابرينا أن تقرر ما تريد أن تفعله قبل أن ياتي باي كاميرون مساء الغد."
وقبل أن تضع سابرينا قدمها على أول درجة من درجات السلم الى الطابق العلوي حيث غرفة نومها، سمعت ديبورا تسأله:
"باي كاميرون قادم مساء الغد.. لماذا؟"
فأجاب الأب:
"إنه سيصحب سابرينا الى المرفأ."
فسألته خطيبته بدهشة غير مصدقة:
"هل تعني موعد غرام؟"
"يمكنك أن تطلقي عليه ذلك. اتصل بي هاتفيا بعد ظهر أمس، وأنا في مكتبي عقب لقائه بسابرينا وسألني اذا كان لدي أي اعتراض على خروجه معها، ولم أستطع أن أسأله عن نواياه، لأنني سأبدو له وقحا في سؤالي، في حين كان رقيقا في معاملته لها."
"هل أشار الى العصا؟"
فأجاب:
"كلا.. كانت مفاجأة لي."
حسنا... تنفست سابرينا الصعداء، على الأقل لم يكن لأبيها ضلع في المؤامرة التي دبرها باي كاميرون. وانتابها القلق عندما راودتها الرغبة بالتأكيد أن أباها لن يدبر شيئا آخر لخداعها حتى تحقق رغبته. وكذلك كان عليها أن تسلم بأن باي لم يجبرها على قبول العصا العاجية، وإنما تركها ببساطة، ووجودها خلق أزمة ولكن شكرا لحكمة أبيها.

* * *

بضع دقائق قبل الساعة السادسة، جلست سابرينا على الاريكة، وراحت تقرض طرف أظافرها. وللمرة الثانية تأكدت من وجود سترتها الجلدية ملقاه على ذراع الأريكة، ولكن رنين جرس الباب أعادها من حالة التأمل الى دنياها.
وجذبت بسرعة السترة ووضعت محفظة نقودها الصغيرة في حقيبة يدها، ومررت يدها سريعا على شعرها الذي

استرسل على كتفيها لتثبت خصلاته المتنافرة في الشنيون المعقود فوق رأسها، وسمعت باي كما توقعت· وتمتمت قائلة:
"أنا قادمة·"

وقبضت يدها على مقبض الباب، ولكنها ترددت، إذ تطلعت عيناها المظلمتان الى حامل المظلات، وامتدت يدها نحو العصا البلوطية، وظلت ساكنة لبضع دقائق ثم أطلقت زفرة، بعدها أبعدت يدها عنها، ثم راحت تبحث بشغف عن العصا العاجية المنقوشة برؤوس التنين·

وهبطت درجات السلم ببطء، وفتحت الباب الخارجي، ثم أوصدته وراءها، وشدت كتفيها وهي تتجه نحو البوابة الحديدية·· وباي·· الذي استقبلها قائلا:
"استغرقت وقتا طويلا، حتى بدأت أتساءل عما يعوقك عن القدوم·"

وكذبت سابرينا قائلة:
"كان علي أن أضع السترة على كتفي·"

وانتظرت منه التعليق على العصا العاجية· ولكن باي قال وهو يفتح لها البوابة الحديدية ويلحق بها عند الرصيف:
"سيارتي تقف عند المنعطف·"

ووضع يده على مرفقها وراح يقودها الى السيارة، وترقبت مفاجأة التعبير عن انتظاره، وهو يساعدها على دخول السيارة، ولما كان باي صامتا لا يتفوه بكلمة بعد أن مضت بهما السيارة، واتجهت الى الطريق، وجدت نفسها لا تستطيع الاستمرار في السكوت حتى يختار هو اللحظة التي يتكلم فيها، فقالت له بتحد وهي تدير رأسها نحوه:
"حسنا؟"

سأل باي بهدوء:
"حسنا··· ماذا؟"
"ألا تقول شيئا عن العصا؟"

قال بصوت هادئ وخفيض:
"ماذا تتوقعين مني أن أقول؟"

فقالت له بأتهام:
"أظن أنك تشعر بالغرور بنفسك·· إنك تركت العصا عن عمد·"

أجاب باي:
"قدمتها هدية لك، وأنا لا أستعيد هداياي، والأمر كان

متروكا لك تفعلين بها ما تشائين· ولم أصر أبدا على استعمالك لها· ولن أمنعك من رميها في سلة المهملات·"

فقالت له:
"حسنا·· لقد قررت استعمالها·"

قال لها والسيارة تنحدر عبر التل:
"أنا سعيد، ولكن هل ندع الآن الحديث عن العصا؟"

وتنهدت سابرينا قائلة:
"أجل·"

ويبدو أنها كانت ترغب في كل مرة أن تعرف كيف يكون رد الفعل عليه، ولكن باي لم يحقق لها رغبتها· ربما انتابه شعور بالانتصار، أو كان مصيبا بعض الشيء في سلوكه، إلا أنه ظل هادئا· وفي الواقع كان من الخطأ أن تستسلم سابرينا لمشاعر الحنق ضده· فهي وحدها التي اتخذت قرار استعمال العصا، ولم يكن باي هو صاحب القرار، وهذا ما يعرفه حق المعرفة·

وعندما بلغ باي نهاية الطريق المنحدر، استدار بالسيارة مرة أخرى وقال:
"فكرت أن أقف بالسيارة عند ميناء اليخوت· ثم نسير بمحاذاة البحر حتى دكان مرفأ الصياد، هل توافقين؟"

ووافقت سابرينا قائلة:
"حسنا·"

وتوقفت السيارة في الموقف وأغلق باي أبوابها ثم شرعا في السير، وقد تأبط ذراعها اليسرى بيمناه· وراحت طيور النورس تصرخ في السماء، وهما يعبران فورت ماسون ويقتربان من أرصفة أسطول السمك· وكانت أجنحة طيور البطريق تخفق مع صرخات طيور النورس· وتغيرت رائحة الهواء المعبقة بالملح المندى برائحة السمك· وبالرغم من أن هدفهما كان التوقف عند الأكشاك التي تبيع الأطعمة البحرية، إلا أنهما قررا مواصلة السير ثم العودة ثانية· وكان الطريق مزدحما بالسياح الذين راحوا يكتشفون مواقع المنطقة، ويتدافعون بمناكبهم، وهم يستنشقون الهواء كما كان سابرينا وباي يفعلان·

وسمعت دوران مراوح زورق سياحي يشير الى قيام رحلة بحرية في الميناء، وكانت الكشافات تلقي بأضوائها على مرمى البصر عند·

وعند نهاية الدرابزين، عبرا الشارع الى صفوف

من الدكاكين، ثم قفلا راجعين حتى بلغا أكشاك الأطعمة البحرية، ورفعت سابرينا وجهها تستقبل النسمة المملحة ثم سألت:

"هل الضباب قادم؟"

أجاب باي:

"بدأ يحجب القناطر العاليا لغولدن غيت بريدج وتلال مارين شمال الخليج. وربما تزداد كثافة الضباب هذه الليلة."

فابتسمت سابرينا ابتسامة شيطانية وقالت:

"وفي هذه الحالة سأعود بك الى السيارة."

وضحك باي ضحكة مكتومة، فرفعت رأسها نحوه في استغراب وسألته:

"من أين حصلت على اسم باي؟"

قال مداعبا:

"أعطاني والدي إياه.. هل تظنين أنني أطلقته على نفسي؟"

سألته وهي تحاول أن تغير دفة الحديث:

"ربما أنا أطلقته عليك. هل مازال والداك على قيد الحياة؟"

"آخر مرة سمعت أنهما مازالا على قيد الحياة، ويقضيان شهر عسل ثان في أوروبا."

ثم شد على ذراعها محذرا إياها، وقال:

"عليك بالهبوط درجة هنا."

وسألته سابرينا مرة أخرى:

"هل باي اسم العائلة؟"

فقال موضحا:

"أتمنى أن يكون ولكنه ليس اسم العائلة أنما اشتقوا هذا الاسم من سان فرانسيسكو باي الذي شاهدته أمي من نافذة المستشفى. فهي مولودة هنا في سان فرانسيسكو. وترعرعت هنا أيضا، وشاهدت الخليج آلاف المرات. وأنت كيف أطلقوا عليك اسم سابرينا؟"

"أمي أحبت موسيقى الاسم أنه رومانسي."

فقال ساخرا:

"وأنت لست رومانسية."

فابتسمت بفتور:

"ربما قليلا."

قال باي ليغير بسهولة دفة الحديث:

"سرنا أكثر من ساعة... هل تشعرين بالجوع؟"

"أوشكت على الجوع."

"كان يجب أن تقولي ذلك."

وهزت كتفيها باستخفاف، وقالت ضاحكة:

"إن الطعام في الجانب الآخر من الشارع. يكفي أن أتتبع الرائحة التي تلتقطها أنفي."

فسألها:

"هل أنت متأكدة من أنك لا ترغبين في تناول الطعام في أحد المطاعم هنا؟"

أوقفها حتى تمر سيارة كانت تعبر الطريق بهدوء، فقالت له بحزم:

"بالتأكيد."

وعلى طول صف أكشاك الأطعمة البحرية، راح باي يختار الكابوريا المطهوة، ورغيفا مستديرا من الخبز، وسلطة وكوكتيل القريدس، بينما كانت سابرينا تضغط على معدتها الجائعة التي أثارتها رائحة الطعام اللذيذة. وعندما انتهى باي من الشراء، ناولها الحقيبة وسألها أن تنتظر قليلا، حتى يشتري زجاجة من المشروب.

وداعبت دغدغة خفيفة ظهرها، قبل أن تلمس يده ذراعها معلنة عن عودته. من الواضح أن لديها قدرات من تبادل الخواطر مع غيرها حتى تخبرها بميعاد اقتراب باي منها. وسألها:

"هل أنت مستعدة لنزهتنا؟"

وفي هذه اللحظة زأرت معدتها تطالب بالطعام، فانفجرا ضاحكين. وتناول حقيبة الطعام منها، وكانت يدها التي تعلقت بذراعه أقرب الى المصاحبة منها الى طلب إرشادها للطريق التي يسيران فيها متجهين الى ميناء اليخوت، والشاطئ المتاخم له.

وعندما بلغا حافة الميناء أحست سابرينا بأن الضباب بدأ يزداد كثافة فقالت بأنين غاضب:

"إنه رذاذ المطر."

فتنهد باي قائلا:

"على ما يبدو أن السماء ملبدة بالغيوم، وكذلك بالضباب."

فاقترحت سابرينا قائلة:

"في وسعنا أن نحمل الطعام الى المنزل."

"عندي فكرة أفضل. يختي مشدود الى رصيف المرفأ."

يمكننا أن نتناول الطعام على ظهره. فما قولك؟"
فابتسمت وقالت:
"أعتقد أن هذا المكان أكثر بهجة من المنزل."
"هيا بنا."
وانتظرت سابرينا على رصيف المرفأ حتى قام باي بترتيب الطعام في اليخت، ووقف ومد ذراعيه، وأحاط وسطها براحتيه، ورفع جسمها ووضعها على ظهر اليخت، وظل ممسكا بها حتى استقرت قدماها على الأرض، وزادت المطر من رائحة العطر الذي يستعمله بعد الحلاقة، وأحست بظهر اليخت الذي تطأه بقدميها يتحرك حركة منتظمة مع ارتطام مياه الخليج بجسمه.
قالت سابرينا وقد شابت صوتها نبرة غريبة:
"مضى وقت طويل منذ أن وطأت قدماي سطح الماء. إن برودته تبعث رعشة خفيفة في ساقي."
وبدا هذا التبرير معقولا... يوضح سر ضعف أطرافها. والتفت ذراعه بقوه حول وسطها ليقودها الى أسفل اليخت. وعندما تأكد من أنها تشبثت بشيء ما، هبط درجات السلم أمامها حتى يلتقطها بذراعيه اذا ما تعثرت قدماها. ولما استقر بهما المقام في أسفل اليخت أخبرها بمكان المقاعد، وتركها تأخذ سبيلها اليها. وسألها:
"هل تحبين الإبحار باليخت؟"
وأشار حفيف الحقائب الى قيامه باخراج الطعام منها، استعدادا لتناوله، وقالت في حسرة:
"أحب ذلك... فقد اعتدت الاستمتاع بالرحلات البحرية مع أبي."
سألها بصوت خفيض حاد مشوب بالدهشة:
"ألم تبحري ثانية منذ الحادث؟"
قالت:
"أوه... عدة مرات، وكان علي أن أمكث في أسفل اليخت لأن أبي لا يجيد السباحة، وكان يخشى أن أسقط في الماء من فوق السطح، فيعجز عن إنقاذي. أما أنا فأحب أن أجلس على متن اليخت حتى أحس بالريح المملحة تلسع وجهي، والامواج تتكسر على مقدمة السفينة. ولما فقدت هذه المتعة لم أعد راغبة في الخروج ثانية."
"الا تخشين الآن السقوط في البحر؟"

وهزت كتفيها باستخفاف:
"لا...."
وقدم لها باي كوكتيل القريدس، ثم اتخذ لنفسه مقعدا في مواجهتها، وراحا يتناولان الطعام ببطء، ويتبادلان الحديث الذي تركز لفترة حول الرحلات البحرية، ثم تحول الى موضوعات أخرى مثيرة، تناولت النشاطات التي يمارسها الإنسان في وقت الفراغ. رشفت سابرينا قليلا من الشراب وقالت:
"اعتدت أن أراقب الناس عن كثب، وأقوم بدراسة ملامح وجوههم. طبعا كان ذلك له علاقة بعملي، وجاءت أغلب شخصياتي الجيدة من وجوه الناس الذين شاهدتهم في الشارع. إن موقف الانسان من الحياة مكتوب على وجهه. النظرة المتجهمة للمتشائم، والقسوة في وجه الساخر، والسلطة في وجه القائد، والنظرة القلقة في وجه الرجل الذي ينشد النجاح، والرضا في وجه رب الأسرة، وهناك أشياء عديدة أخرى ولكن ليس من السهل في أن أعتمد على الأصوات لتحديد ملامح الوجوه، ولكنني واصلت التدريب بالرغم من أن المهمة كانت شاقة لادراك تعبيرات الوجوه من أصوات أصحابها."
وسألها باي متحديا إياها ساخرا:
"وماذا عرفت عني؟"
وتراقصت لمحة يأس على شفتيها وقالت:
"حسنا. أنت شخص واثق من نفسك الى حد الكبرياء، متعلم، واعتدت على فرض سلطتك على الآخرين، وتحب أن تتمتع بالرحلات وخاصة البحرية منها، ولك سجية سريعة، ولكن في وسعك أن تكون عميق التفكير اذا لزم الأمر."
"وهل تصورت وجهي من خلال صوتي؟"
وأحنت سابرينا رأسها بسرعة لتتوارى عن نظراته، وقالت:
"إنها صورة مشوشة لملامح قوية."
ودفعت بالطبق بعيدا عنها، وقالت:
"الطعام جيد."
وسألها باي بهدوء. متجاهلا محاولتها لتغيير دفة الحديث الى الطعام:
"لماذا لم تطلبي مني أن تتطلعي الى وجهي؟"
وتلعثمت وهي تسأل:

"ما ... ماذا ؟"
فقال موضحا :
"كما فعلت يوم شراء الثوب".
ورفرف المرح على حافة صوته، عندما رأى القلق يعتريها ، فاندفعت تغير من وضع جلستها على المعقد لأن مجرد التفكير في اكتشاف وجهه بيديها كان كفيلا بأن يشيع الاضطراب في نفسها . وأردف باي يقول:
"يمكنني أن أكمل لك وصف الأجزاء. شعري أخضر، وعيناي أرجوانيتان وتوجد ندبة قبيحة طويلة على جانبي وجهي أخفيها بلحية كثيفة خضراء اللون، وهناك وشم جمجمة وعظمتان متقاطعتان فوق جبيني، ولن أخبرك بشكل الصورة المنقوشة على صدري".
وتحولت الابتسامة التي تعلو شفتيها الى ضحكة، عندما انتهى من عرض صورة لملامح وجهه، وأردف يقول:
"الا تصدقينني؟"
فاستمر في الضحك ثم قالت بعد أن خف توترها:
"بالكاد.. فإن جارتي أخبرتني من قبل بأن شعرك بني يميل الى الاحمرار، وكذلك عيناك".
وصحح باي كلامها قائلا:
"في لون القرفة كما تقول أمي، كنت على الاقل شغوفة لمعرفة كل شيء عني".
فقالت وهي تحاول أن تبدو اجابتها عابرة:
"بالطبع".
فسألها:
"وماذا قالت جارتك عني أيضا ؟"
وكانت سابرينا تعزف عن الإشارة الى ماقالته لها بيغي عن رجولته فأجابت مراوغة:
"بيغي لم تحسن وصفك".
فقال لها متحديا:
"من الأفضل أن تتبيني الأمر بنفسك".
وسمعته وهو يرتب الأواني ويعيد الأطباق، وأتاحت لها تحركات باي الفرصة للتفكير في العثور على عذر يساعدها على تجنب مهمة اكتشاف ملامحه التي دعاها اليها، وبذلت ما في وسعها، ولكن جهودها باءت بالفشل في العثور على هذا العذر بحيث لا يكشف عن شعورها بالخوف من هذه الالفة

التي أبداها باي.
وعندما عاد لم يجلس في مقعده الأول، وأنما اختار مقعدا الى جوارها، وقبل أن تبدي أدنى معارضة، أخذ معصميها بيدين رقيقتين لكنهما حازمتان، ورفع راحتها الى وجهه. وزجرها برقة وهي تحاول أن تنأى بهما بعيدا . وقال لها :
"لا حاجة بك للشعور بالخجل وتأنيب الضمير، إن الأمر لا يدعو الى الحرج".
وشعرت بالمعالم الصلبة لفكه القوي تحت يدها التي راح يضغط عليها وهي تسير على جانبي وجهه، وأطلق سراح يدها عندما تلاشت مقاومتها. وكان دفء حرارة جسمه يخفف من برودة أصابعها، فبدأت سابرينا رحلة اكتشاف ملامح وجهه وحدها.
وانطلاقا من خط الفك، أخذت أطراف أناملها تسري على خديه حتى وصلت الى عظمتي الوجنتين، ثم فوق رموشه المعقوصة. وبعد ذلك تحسست حاجبيه الكثيفين وجبينه العريض، وشعرت بشعره الكثيف المتماوج قليلا الذي تشبع بندى الضباب ورذاذ المطر. ووجدت أنفه الروماني محدب الشكل يتناسب مع كبريائه، وبدا على شفتيه الحزم الرقيق، وعندما انتهت من فحص زاوية ذقنه القوية، القت يديها جانبا.
وفكرت سابرينا باقتناع في أن وجهه حقا وجه رجل.. ولا جدال في ذلك. ولا يمكن أن يصفه أحد بأنه مليح الوجه فقط، وإنما بالتأكيد مثير أيضا، يجذب اليه الأبصار، ويدير الرؤوس عندما يدخل الى أي غرفة. وسألها باي بصوت رقيق ناعم:
"ما الحكم؟"
وحدست أن رضاها قد انعكس في التعبير الذي ارتسم على ملامحها، وأشاحت برأسها بعيدا عن نظراته التي شعرت بها مركزة على وجهها.
اجابت باستخفاف كاذب:
"الحكم هو... أنني أحب وجهك".
ووضع أحد أصابعه تحت ذقنها، وأدار رأسها نحوه وهمس برقة:
"وأنا أحب وجهك.. أيضا".
ومن ثم أمسك باي يدها بقبضته وقال لها:
"هيا بنا نذهب الى أحد المطاعم لنتناول فنجانا من القهوة".

ووافقت سابرينا بترحاب على مغادرة اليخت، لسبب ما أحست أن الأرضية التي تقف عليها غير مستقرة تحت قدميها، وهي ترغب في العثور على أرض صلبة لتشعر فوقها بالاطمئنان.

وكانت الساعة تجاوزت العاشرة ببضع دقائق، عندما أوقف باي سيارته أمام منزلها، وسار معها حتى البوابة الحديدية، فالتفتت نحوه سابرينا وقالت بتردد:

"امضيت وقت طيبا معك... أشكرك."

فقال باي:

"وأنا أيضا، ومن ثم لا حاجة بك لتقديم امتنانك. سأقضي الأسبوع القادم كله في لوس أنجلوس، وعند عودتي سأتصل بك هاتفيا."

قالت:

"ليس هذا ضروريا."

وكانت سابرينا تتمنى ألا يفكر باي في أنه قد أصبح واقعا تحت أي التزام يجبره على رؤيتها مرة ثانية.

قال:

"أعرف أنه ضروري. وداعا يا سابرينا. سأنتظر في السيارة حتى أرى النور في غرفتك، وتأكدي من إطفائه عندما تذهبين الى النوم. هل يمكنك أن تفعلي ذلك؟"

وهزت رأسها وقالت:

"أجل. وداعا... يا باي."

وعبرت الباب الحديدي، وأوصدته وراءها.. وسارت نحو باب البيت.. وهي تشعر بنظرات عينيه تتبعها.. هاتان العينان البنيتان في لون القرفة التي تتمشى مع لون شعره البني.

٥ - رحلة عمل

توجهت سابرينا الى جهاز الاستريو وأدارت بعصبية المؤشر لتوقفه. لم تجد في الأنغام الموسيقية ما يرضيها، بل لم تجد أدنى رغبة في الطهو أو التنظيف... حتى لو احتاج الأمر الى ذلك. وسئمت كذلك القراءة لأنها تحتاج الى تركيز كثير منها، في حين أنها كانت شاردة الذهن وقلقة.

وهتف بها صوت داخلي يلقي اللوم على باي كاميرون لأنه كان السبب الحقيقي وراء هذه الصورة التي آلت اليها، ولم تعرف لماذا أثرت عليها رحلة العمل التي قام بها الى لوس أنجلوس كل هذا التأثير. كانت نوبات القلق تنتابها كثيرا من قبل وحتى قبيل الحادث، لكنها كانت تعرف كيف تتغلب عليها بتكريس كل طاقتها للرسم، أما الآن. فليس لديها أي متنفس تلجأ اليه.

"هل حاولت تشكيل أي تمثال بالنحت؟"

خيل لها أن صوت باي يتحدث بوضوح الى عقلها، كما لو كان يقف الى جوارها. وأحست أن البذرة التي غرسها منذ عدة أيام بدأت تؤتي ثمارها. وقبل أن تغير رأيها اتصلت بالهاتف بمخزن الأدوات الفنية وطلبت سام كارليل وتقلصت أصابعها بعصبية على حبل الهاتف، وبعد عدة دقائق سمعت صوتا فأردفت تقول:

"أهلا سام... أنا سابرينا."

فصاح بدهشة تخالجها السعادة:

"سابرينا... كيف حالك؟"

ثم تغيرت نبرة صوته في الحال وقال:
"اسمعي.. أنا آسف. مضت مدة طويلة لم اتصل بك هاتفيا، او أتوقف للسؤال عنك، ولكن على أي الأحوال.."
فقاطعته بسرعة وقالت:
"كل شيء على ما يرام. في الواقع أنني أطلب منك أن تؤدي لي خدمة.."
"أطلبي ما تشائين، وسوف ألبي طلبك."
"هل في وسعك أن تبعث لي رسولا معه صلصال وأدوات نحت زهيدة الثمن؟"
فسألها مشدوها:
"هل عزمت على ممارسة فن النحت؟"
قالت سابرينا:
"سأبذل المحاولة. ولهذا أطلب منك أن ترسل لي الأدوات الضرورية حتى أرى ما اذا كانت المحاولة تستحق الاستمرار، أو أنفض يدي منها."
فقال سام:
"اعتقد أنها فكرة رائعة... ضربة عبقري."
"هل يمكنك إرسال الأدوات مع رسول؟"
"اتمنى أن آتي بنفسي لو سمح لي العمل، ولكن عندي موظف سيغادر المخزن بعد عشر دقائق، وسيكون بيتك هو أول محطة له."
وشاعت البهجة في وجهها وهي تقول:
"شكرا لك يا سام."
قال وهو لا يعير اهتماما لآيات الشكر التي طوقت عنقه بها:
"اسمعيني.. أنا آسف لأنني لم أقدم لك اقتراحا كهذا من قبل. سوف تصلك الأدوات حالا. سوف نلتقي قريبا. أليس كذلك؟"
فقالت سابرينا:
"أجل يا سام.. قريبا."
وبعد مضي نصف ساعة وصلت الأدولت، وكانت سابرينا قد نظفت مكاناً صغيراً في الاستديو حيث تستطيع ممارسة عملها، أما في المساء فستعهد الى أبيها برفع بقية الأدوات الثقيلة. وكان الرسول قد تطوع بحمل الطرود الى المكان الذي ترغب سابرينا فيه حتى يوفر عليها مجهود نقلها الى

الاستوديو. تراقصت رعشة من الاضطراب في سلسلتها الفقرية وكان قميصها الفضفاض القديم معلقا وراء الباب، تنبعث منه رائحة الألوان الزيتية وسوائل التنظيف، حيث كانت ترتديه فوق ثيابها أثناء الرسم لحمايتها من الاتساخ، فارتدته ثم سارت نحو مائدة العمل وهي تحدث نفسها قائلة: قريبا سوف يمحو عبير الصلصال هذه الرائحة.
وانهمكت في العمل، وتلاشت من حسابها مشكلة الزمن، وواصلت تشكيل تماثيل بسيطة، واتخذت من الفاكهة التي حملتها معها من المطبخ نماذج راحت تتلمسها بيدها. واستفاقت من استغراقها عندما نادى عليها أبوها للمرة الثانية.
فأجابت:
"أنا فوق... في الاستوديو."
وتراجعت خطواتها، وهي تمسح يديها في قطعة القماش، وسمعت أقداما تصعد الدرجات بسرعة، فالتفتت نحو الباب ووجهها يكسوه الخوف والاضطراب. وعندما رآها أبوها تنهد ثم قال:
"كدت اجن. لماذا لم تجيبي على ندائي؟ ماذا تفعلين هنا؟"
أجابت سابرينا برقة:
"أعمل.."
وخيم صمت مطبق أفصح لسان حاله عن أن التفسير ليس ضروريا، بعد أن راى بنفسه. وانتظرت سابرينا بضع ثوان ليدلي بالتعليق على أعمالها الفنية، ولما طال انتظارها سألته وهي لاهثة الأنفاس:
"ما رأيك؟"
فقال لها:
"لا كلام عندي. كيف..؟ متى.."
وانفجر ضاحكا عندما تعثرت أسئلته على لسانه، فألقى ذراعه على كتفيها وقبلها قبلة عنيفة، واسترسل يقول:
"أنت فتاة رائعة.. وأنا فخور بك."
واضطرب صوته مشوبا بحرارة عواطفه.
فقالت بشوق:
"طبعا.. ولكن ما رأيك؟"
فابتسم أبوها قائلا:
"إذا كنت تسألين عما إذا كان في وسعي أن أفرق بين

التفاح والاجاص، فإن جوابي: نعم بالتأكيد أستطيع. وفي وسعي أيضا أن أرى عنقود العنب الذي تقومين بتشكيله الآن. ولا حاجة بي الى أن أقول أنه يصعب على المرء أن يميز بين الطبيعة الحية، والطبيعة الصامتة."

"هل تعني حقا يا أبي ما تقول؟"

قال مؤكدا على كلامه:

"أعني ما أقول. والآن أسألك: متى قررت القيام بكل هذا؟ لم تشيري لي بكلمة واحدة عنه؟ متى حصلت على كل هذه الأدوات؟"

"في الأسبوع الماضي سألني باي إذا كان بوسعي استعمال الصلصال في تشكيل تماثيل، وفكرت مليا في اقتراحه، واتخذت قراري هذا الصباح فقط لكي أبدأ المحاولة، فطلبت من سام في مخزن الأدوات الفنية، أن يبعث الي بأدوات نحت مع رسوم."

"هذا الصباح؟ أنت تعملين منذ ذلك الوقت؟ لابد أنك مجهدة؟"

"مجهدة؟"

وأدارت وجهها نحوه، وعلى شفتيها ابتسامة عريضة، وأردفت تقول:

"كلا يا أبي.. أحس بأنني مازلت على قيد الحياة. هذه أول مرة أعمل فيها فترة طويلة."

وران الصمت لفترة فالتقط أبوها نفسا عميقا وقال:

"في الواقع، أنت استغرقت في العمل يوما كاملا، ولا معنى لبذل مزيد من الجهد، وبخاصة أنك نسيت تناول وجبة العشاء."

قالت مستسلمة:

"أنا طوع أمرك!"

وامضت سابرينا كل دقيقة من عمرها على مدى أسبوع في حجرة الاستوديو، وكانت النتائج النهائية أقرب الى الفشل منها الى النجاح، ولم تأبه كثيرا عندما أصر أبوها على أنها لن تتوقع الكمال وهي في بداية الطريق، ولكن سابرينا كانت تبذل كل جهد لكي تحقق الكمال مهما كلفها الأمر، ولا شيء أقل من الكمال يرضيها.

وفي صباح يوم الأحد أمرها ابوها أن تغادر الاستوديو قائلا:

"بالله عليك استريحي يا سابرينا، فقد أرهقت نفسك طوال الأيام الستة الماضية."

وسقطت مستسلمة لمنطقه، وشعرت أصابعها بالألم من الصلصال الذي غطى راحتها، وأدركت أن أباها على حق. وقال لها:

"لدي عمل أريد أنجازه في الزورق. لماذا لا تأتين معي اليوم ستكون ديبورا مشغولة في المطبخ، وأنا واثق أنك ستتسللين الى هنا عقب رحيلي إذا لم يكن لديك أي شيء تقومين به."

وضحكت سابرينا برقة وقالت:

"لن أفعل ذلك."

فقال ساخرا:

"آوه... اعلم ذلك إذن ستأتين معي؟"

قالت بعتاب:

"أعتقد أنه أمر رهيب إذا كنت لاتثق بي.. أنا ابنتك. وخير لي أن أذهب معك مادمت ترى أنني لم أعد موضع ثقتك."

أضاف أبوها قائلا:

"البسي ثيابا كافية لأن هناك نسمة شديدة تهب من المحيط الهادي، واختاري منها ما يتحمل الاتساخ، لأنني فكرت في أن أعهد اليك بتنظيف قاع الزورق."

وهزت سابرينا رأسها وقالت:

"لهذا السبب تريد مني أن أذهب معك."

فقال لها وهو يتوجه الى درجات السلم:

"ألا تظنين أنني حقا أبغي صحبتك؟"

واكتشفت سابرينا أن الريح كانت قارسة، وضباب الصباح لم ينقشع بعد، لذلك فشلت حرارة الشمس في تدفئة الجو. وعندما هبطت الى قاع الزورق لم تشعر بتلك النسمة الباردة، فبدأ العرق يتصبب فوق جبينها... مسحته وبدأت تطوي أكمام بنطال العمل الأزرق الذي كانت ترتديه، وشرعت في تنظيف أرضية الزورق، وتعلقت قطرات من العرق بالياقة الصوفية لسترتها التي أخذت تدغدغ جلد ظهرها الحساس ولم تستطع أن تحكه إذ كانت يداها تغطيهما رغوة الصابون، وما أن انتهت من أداء مهمتها حتى قررت أن تنادي أباها ليتناول فنجانا من القهوة، وأدركت من الأصوات التي تناهت اليها أنه يتحدث مع أحد هواة الرحلات البحرية.

وفكرت أن تحمل دورق القهوة وبعض الفناجين الى

سطح الزورق لتقدم لهم القهوة، ولكنها سمعت خطوات هادئة لشخص ينتعل حذاء مطاطيا وهي تقترب للهبوط على الدرجات المؤدية الى قاع الزورق، فأسرعت سابرينا تزيل الصابون الذي يكسو الأرضية، وعندما بدأ يهبط السلم توقفت ثم التفتت في اتجاه الخطوات القادمة:

"فكرت في أن أقدم لكم القهوة على سطح الزورق يا أبي حالما أنتهي من التنظيف هنا. وسوف أحضر معي فناجين اضافية إذا أحب الآخرون مشاركتنا في احتسائها."

"هذا اقتراح جميل."

"باي عدت ثانية."

وأطلقت صرخة السرور والفرح بلا وعي من شفتيها ! فقال لها باي:

"عدت متأخرا بعد ظهر أمس، وتوقعت رؤيتك هنا اليوم مع أبيك، ولكنني لم أتصور أنه سيجعل منك جارية تقوم بتنظيف أرضية الزورق."

فابتسمت سابرينا وقالت:

"هل أمضيت رحلة طيبة؟"

"نعم... قمت بمراجعة حسابات بعض العقارات المستثمرة، وتفقدت بعض الأراضي التي أرغب في شرائها. ثم التقيت بصديق قديم كان زميلا لي في الجامعة وتركته يتحدث مع أبيك على سطح الزورق. لم لا تأتين لمقابلته؟"

وكانت تتوقع أن يكون هذا الصديق امرأة، وخشيت أن ينعكس شعورها في تعبيرات وجهها، وودت من أعماقها الا يحدث ذلك حتى لا يشعر باي بأنها غيور. أنهما مجرد صديقين. وأخيرا قالت:

"سأنتهي خلال دقيقة. إذا كنت تحب أن تتناول القهوة، احمل معك الدورق، وهناك فناجين أخرى في الخزانة خذها معك. وأنا سأحمل معي علبتي السكر والحليب."

ووافق باي قائلا:

"حسنا."

وبعد مضي دقائق انضمت سابرينا الى الأشخاص الآخرين المجتمعين على سطح الزورق، وعندما رفعت الريح خصلات شعرها من فوق جبينها، أدارت وجهها لتستقبل نفحة الهواء البارد، فقال لها أبوها:

"سابرينا... دعيني أتناول منك هاتين العلبتين."

وتناول منها العلبتين وساعدها على الوصول الى سطح الزورق. فقال باي:

"هذه الآنسة سابرينا لين... ابنة السيد غرانت لين، وهذا أخي الصديق العجوز الدكتور جو بارونغ."

قال صوت أجش في لهجة ساخرة:

"أنا معروف لدى جميع مرضاي باسم جو أو الدكتور جو."

وسرت رعشة باردة عبر سلسلتها الفقرية، فقالت:

"كيف حالك؟"

وكانت تحيتها جافة، منذ أن اعتادت أن تنأى عن كل العاملين في مجال الطب، منذ اللحظة التي وقعت فيها الحادث، ولقاءاتها المتتالية لسلسلة الأطباء. وأفاقت على صوت الدكتور وهو يقول:

"جو... اسمي جو. أخبرني والدك أنك عمياء منذ عام واحد. أرى أن أمورك تسير على ما يرام."

فقالت له:

"ليس أمامي أي اختيار. هل هناك سبيل آخر؟"

"بالطبع يوجد هناك سبيل آخر، وهو أن تسوء بك الحال."

كانت إجابته هراء، بعثت ابتسامة شاحبة على شفتيها، وكانت دائما تتوقع من الطبيب أن يكون - حتى في بيته - حازما... غير عاطفي. يؤدي واجب الاحسان لمريضه، ولكن هذا الطبيب يبدو مغامرا تماما فقالت له:

"كنت أندفع الى الأثاث والمباني في أول الأمر."

"وهل تستعملين عصا أو تستخدمين كلبا يكون بمثابة عينك المبصرة؟"

ولم يتح لها الفرصة للاجابة على سؤاله، وواصل كلامه:

"أسمع أن العميان يستخدمون كلاب البودل مثلما يفعل رعاة الغنم وتكون هذه الكلاب عيونهم المبصرة. هل تتخيلين شكل كلب البودل بتسريحة بومبادور وخصلة من الزغب تعلو ذيله، يقود رجلا أعمى؟ إن منظر الرجل يبدو لي في قمة السخرية على حين لا أشعر بأي امتنان لذكاء الكلب."

وضحكت سابرينا من تلك الصورة التي رسمها الطبيب في ذهنها، فقد كان تصويره لا يدعو الى الاحترام بقدر ما كان يبعث على الضحك مما بدد القلق الذي كان مسيطرا عليها. ولاقى ضحكها ارتياحا لدى الجميع مما جعل الحديث يتدفق طبيعيا بينهم. وهيمن الدكتور جو على دفة الحديث

بموضوعاته المتعددة، الا أن الحديث كان يتركز في بعض الأحيان حول موضوع فقد بصرها، والضرر الذي لحق بالاعصاب البصرية نتيجة لأصابة رأسها. وأدركت فجأة أن هذه التساؤلات لم تكن عرضية وأنما كانت موجهة اليها بفكرة مدروسة، وقاطعت الطبيب في منتصف حديثه قالت:

"انتظر دقيقة. أخبرني بالضبط أي نوع من الأطباء أنت."

قال:

"واحد ممتاز.. جراح متخصص."

بعدها رفعت رأسها مستوقفة وسألته بنبرة أتهام:

"من أي نوع؟ انتظر... دعني أتكهن. أنت جراح عيون."

قال جو براوننغ بلا أدنى حرج:

"تقديرك في محله، وهذا دليل على أنك فتاة شديدة الانتباه."

"علام كل هذه الأسئلة، هل هو امتحان خبيث؟"

فقال ببساطة:

"أجل."

عندئذ تملكها الغضب، فاستدارت تجاه المقعد الذي يجلس عليه باي وقالت:

"هل طرحت الموضوع عليه، أليس كذلك ياباي كاميرون؟ وأنت يا أبي لا بد أنك طرقت الموضوع معه أيضا؟"

فأجاب أبوها بصوت يشوبه الندم:

"كانت فكرتي أنا في أخفاء سبب قدوم الدكتور جو لرؤيتك. باي قام بالاتصال به فقط، أما باقي الفكرة فكانت من عندي."

قالت سابرينا:

"ولكنك ادعيت يا باي أنه زميل دراسة قديم!"

فقال الدكتور:

"أجل أنها الحقيقة. الحقيقة أيضا أننا التقينا مصادفة في لوس انجيلوس ولم تكن لديه أدنى فكرة بأنني عدت الى هناك منذ غادرت المدينة لأقضي عدة سنوات في الساحل الشرقي. وفي لقائنا نوه عنك في الحديث الذي دار بيننا، وبحكم المهنة.. تاقت نفسي الى رؤياك."

وقال باي بهدوء:

"أنا آسف يا سابرينا.. أنني أعرف مسبقا أنك سوف تضيقين ذرعا عندما تكتشفين الأمر."

"إذن... لماذا حاولت خداعي؟"

"شعرت أن من واجبي احترام رغبات والدك، وكان هناك احتمال قوي بأنك لن تكتشفي جلية الأمر، إذا لم يكن الدكتور جو على يقين من وجود أمل أن تستعيد بصرك."

فسألت:

"هل تعتقد يا دكتور أن هناك أي أمل؟"

ورفعت رأسها في خيلاء نحو الطبيب، في محاولة لاخفاء أي ردة فعل لقراره. قال الطبيب بصدق وأمانة:

"أحب اجراء بعض الفحوص في أحدى المستشفيات قبل أن أصدر قراري الأخير. وأعتقد أنه توجد هناك فرصة ضئيلة تبلغ نسبتها عشرة في المائة.. تتيح لنا أجراء عملية."

فقالت سابرينا متحدية:

"ادرك ما تقول.. فأنت تظن أن هذا ما حدث معي تماما..."

قال:

"لا أعرف تماما ولكن من واجبنا ألا نتجاوز هذا الاحتمال، وللتأكيد ستدخلين المستشفى لأجراء بعض الفحوصات، أنا لاأحب أن أبعث آمالا كاذبة في نفسك ياسابرينا، وأنما توجد أمامك فرصة ضئيلة لاستعادة بصرك، والقرار متروك بين يديك."

* * *

لم تتغلب رائحة الزهور التي حملها أبوها معه على رائحة العقاقير الطبية المنتشرة في أرجاء المستشفى.

وانتهت ساعات الزيارة، وأطفئت الأنوار، وازداد عالمها المظلم سوادا في هذا الليلة، وشعرت أنها وحيدة.. فريسة للآلام. كانت تخشى أن تتعلق بأمل أن يأتي الغد ويخبرها بنجاح الفحوص، ولكن لماذا كل هذا الخوف وقد جاءت الى هنا بمحض أرادتها لإجرائها.

وأطبقت سابرينا أصابعها حتى استحالت الى قبضة استكانت الى جوارها. ولعنت باي لمقابلته صديقه الطبيب. لقد رضيت بالأمر الواقع.. وبدأت تعيش حياتها الجديدة.

ومنذ أن كان باي هو المسؤول عن وجودها جزئيا في المستشفى، فإن أقل ما كانت تتوقعه منه أن يأتي لزيارتها، ولكنه لم يفعل، واكتفى بارسال رسالة شفوية مع الدكتور

جو، متمنيا لها حظا سعيدا، ثم سار في سبيله لحظة أن سمحوا لها بدخول المستشفى.

واعترى جسمها الاضطراب، وأدركت أنها خائفة. وودت أن تصرخ، وأن تبكي، ولكن الوضع انفرج قليلا، ودخل شخص الى الغرفة، أخذت خطواته تقترب من فراشها، وخالجها شعور بأن هذا الشخص ليس بالممرضة، وتأكد لها ذلك عندما نفذت رائحة عطر مابعد الحلاقة الى أنفها. وسألها باي برقة:

"هل أنت مستيقظة؟"

فهمست سابرينا قائلة:

"أجل.."

ورفعت جذعها ليتخذ وضعا قائما، وهي تحاول تسوية ثوبها الرقيق على جسمها، وأردفت تقول:

"ساعات الزيارة انتهت، وليس مفروضا أن تكون هنا الآن."

فابتسم قائلا:

"صحيح وإذا شوهدت هنا فسيطلبون مني الرحيل، كيف حالك الآن؟"

قالت كاذبة:

"بخير..."

وشعرت بثقل جسمه على حافة الفراش، واستطردت تقول:

"خيل الى أن الدكتور جو أشار عليك بالذهاب الى حفل أو أي شيء من هذا القبيل."

فقال باي:

"ذهبت.. ولكنني تسللت لأراك. هل هذا يرضيك؟"

فأجابت سابرينا:

"يرضيني... مادام يرضي السيدة التي كنت بصحبتها."

"وما الذي يدفعك الى الاعتقاد بأنني كنت بصحبة إحدى السيدات؟ بالتأكيد كنت أتمنى ذلك."

"ولكنك لم تفعل.. لأنك لو كنت مع أحدى السيدات لتعطرت بعطر باريسي باهظ الثمن." وكانت تحاول بحديثها اخفاء مخاوفها عنه.

فقال ساخرا:

"آه.. من المخبرة العمياء!"

وهزت كتفيها باستخفاف:

"وإذا سلمنا مبدئيا بأنك كنت في حفل.. فمن المنطق أنك سحرت أحدى الجميلات."

"الآن أخطأت الهدف!"

فمالت سابرينا برأسها جانبا وسألته بسخرية:

"لماذا؟"

فأجاب باي بخفة:

"لأنني أركز كل سحري على فتاة عمياء أعرفها.. انسانة جذابة للغاية."

فشعرت سابرينا بغصة في حلقها وهي تقول:

"أجد صعوبة في أن أعتقد..."

وأحست بيده الدافئة فوق يديها وقال:

"يداك باردتان يا سابرينا.. ما الأمر؟"

وبعث اتهامه رعشة في جسمها، وتنهدت باضطراب، ثم قالت:

"أنا خائفة يا باي.. من الغد."

ولم يتفوه بكلمة لمدة دقيقة، وشعرت به يغير من ثقله على الفراش، والتفت ذراعه حول كتفيها، وجذبها الى صدره، وراح يهدهد رأسها، وتمتم بهدوء:

"دعينا نفكر مليا... مخاوفك ليست بسبب الفحوص التي سيجريها الدكتور جو، وإنما هناك أمران أولهما خوفك من أن تستعيدي بصرك، والثاني خوفك من عدم استعادته، أليس هذا صحيحا؟"

وهزت سابرينا رأسها بالايجاب، وشعرت بالسعادة وهي تستمع الى دقات قلبه المنتظمة تحت رأسها، والطمأنينة في كنف ذراعيه القويتين واسترسل قائلا:

"أعرف أنك لا تخافين من عودة الابصار اليك، لأن إبصارك سيسعد الجميع. بقي الأمر الثاني..."

فقاطعته وهي مترددة:

"أنا... أنا تقبلت وضعي في أن أكون عمياء، وبدأت أمارس تشكيل التماثيل بالصلصال، هل أخبرتك بذلك؟ أنا جبانة.. ليتني ما رضخت لهذه الفحوص. ليتني ما قابلت الدكتور جو. لا أريد أن أعاني مرة ثانية الآلام التي تذكرني بأنني سأبقى عمياء الى الأبد."

فقال باي ساخرا:

"أين تلك الفتاة الثائرة. أنت لست جبانة يا سابرينا. لأن الجبان لا يأتي الى المستشفى، ولا يشترك في المغامرة الصغيرة التي يقدم عليها جو. أنت لن تنفجري بالبكاء،

أو تلطمي صدرك إذا جاءت الفحوص سلبية. أما الفتاة الثائرة التي أعرفها فستهز كتفيها باستخفاف وتقول: حسنا... انه قدري".

وشعرت به يبتسم وهو يردد عبارته، ثم استرسل يقول:

"يمكننا أن نستعير قولا مأثورا يا سابرينا يقول: لن تزيد حالتك سوءاً وما من شيء تخسرينه".

فتنهدت قائلة:

"هذا ما حاولت ترديده لنفسي".

"دورك أن تكفي عن الكلام، وتستعدي لمواجهة الأمر الواقع".

ولم يكن يحتاج الى جواب، لأنه أمسك بيديها عدة دقائق، فسرت قوة عضلاته الى ساعديها لتطارد مخاوفها المفرطة، وأخيرا سألها:

"هل أنت بخير الآن؟"

وهزت رأسها، ولمست ذقنها صدره، وقالت مبتسمة:

"أجل".

فقال برقة:

"خير لي أن أذهب قبل أن تأتي الممرضة، وتظن بنا الظنون" وأسند رأسها على الوسادة، وقام بتسوية الغطاء حول صدرها، وعندما انتصب بقامته، بحثت سابرينا عن ذراعه وهمست قائلة:

"شكرا لمجيئك يا باي".

"لا تشكريني على أمر أحب أن أقوم به. ليلة طيبة يا سابرينا، سأراك ثانية".

"ليلة طيبة يا باي".

وتناهى الى سمعها صوت خطواته الرقيقة وهي تبتعد، وشعرت بتيار الهواء ينساب عندما فتح الباب، وأغلقه وراءه.

* *

لاح لها فراش المستشفى وكأنه وسادة مملوءة بالدبابيس تغرز جلدها وهي تتقلب فوقها، وكانت تعلم أن الانتظار هو الذي يؤرق مضجعها. فقد مضى يومان وما زال الدكتور جو ينتظر نتيجة الفحوص، ولكن التجهم الذي بدا في صوته بالامس أكد لها أن النتائج غير مشجعة.

سار أبوها في غرفتها، وكان القلق باديا في خطواته، وفجأة توقف عن المشي واستدار نحوها، وبعد دقيقة هبت نسمة من الممر فمست وجنتيها فاتجهت برأسها نحو الباب:

"صباح الخير يا سابرينا... صباح الخير ياسيد لين".

حياهما الدكتور جو وهو يدخل الغرفة، وكان صوته صافيا عندما استرسل يقول:

"إنه طقس سيء اليوم، ولكنكم يا معشر سان فرانسيسكو اعتدتم على ضبابه".

ولكن أباها تجاوز مزاحه وسأله:

"هل وصلت نتيجة الفحوص؟"

"أجل".

ورفعت سابرينا رأسها استعدادا لسماع النتيجة، ونادت بلا وعي قائلة:

"باي... هل أنت هنا؟"

فأجاب باي بهدوء:

"مرحبا... سابرينا".

فقال الدكتور بعد لحظة ضاحكا:

"لا تخبرني بأن المريضة لديها ملكة تبادل الخواطر مع الآخرين".

فقال باي مصححا:

"أبدا... لديها حاسة شم قوية تعرف بها رائحة عطر ما بعد الحلاقة".

ولم تصحح سابرينا كلامه... لأنها لم تكن واثقة من أن هذا الشعور الذي خالجها هو الذي حدثها عن وجوده هناك، أم رائحة عطره هي التي هدتها اليه.

وتنفس الدكتور جو نفسا عميقا وقال:

"فلنعد الى المهمة التي بين أيدينا الآن، لقد قمت بتحليل نتيجة الفحوص مرتين".

وتوقف عن مواصلة الحديث قليلا فاندفع غرانت لين قائلا:

"وماذا بعد...؟"

"لا تنس أننا نقامر يا سيد لين".

وكان التجهم الذي يشوب صوته يحمل في طياته إنذارا... وودت سابرينا أن تسمع بقية الجواب بسرعة... فأردف يقول:

"وعلى ما يبدو أنه ليس بامكاننا فعل أي شيء، وإنني لشديد الأسف أن أفضي لكم بالحقيقة".

وكان الصمت الذي ران على أبيها ، يحدثها بأن أباها كان يتلو الصلوات من أجل حدوث معجزة . وصلت هي بدورها ، ولكن النطق بالحكم الذي صدر منذ لحظات سحقها تماما ، ورسمت ابتسامة باهتة على شفتيها وقالت:

"كان علينا أن نتخذ الفرصة التي أتيحت أمامنا .. يا دكتور جو ."

وازدادت ابتسامتها عندما استعادت أول ليلة أمضتها بالمستشفى، وتذكرت باي وهو يقول لها: يجب أن نهب الفرصة حماستنا .

وسار الطبيب نحو الفراش وأمسك إحدى يديها بدفء وقال لها :

"شكرا لك يا سابرينا ."

وبعد أن قدم تحيته لأبيها رحل وهو يعتذر له ثانية، ثم سمعت باي يقترب من فراشها ، وتوقف بالقرب منها ، وشعرت بنظراته النافذة ترمق وجهها ، وسألها بهدوء:

"هل أنت بخير ؟"

فقالت هامسة:

"أجل ."

وأدركت أنها تقول الحقيقة، وليس مجرد كلمات شجاعة ترددها فقال باي لها:

"أنا أعرف أن ملكتي العمياء الثائرة، ستعيد صقل الموقف ثانية ."

فأجابت سابرينا :

"بمساعدتك استطاعت هذه الملكة أن تفعل الشيء الكثير ."

فقال باي مستنكرا:

"لا يسعني إلا أن أشهد بأنك ذات أرادة قوية، ولكننا سنناقش الأمر في وقت آخر . ما رأيك في أن نلتقي في مساء السبت ؟"

فكرت كلامه:

"مساء السبت ."

"أجل يمكننا أن نتناول العشاء سويا . سأمر بسيارتي حوالي الساعة السابعة ."

فسألته وفي حلقها حشرجة:

"هل هذا أمر أم دعوة ؟"

"كلاهما . هذا يتوقف على ردك ."

فقالت سابرينا مطأطئة الرأس:

"أنا فخورة أن أتناول العشاء معك... يا سيد كاميرون ."

وأضافت تتحدث الى نفسها في صمت: بل انه أكثر من الفخر . ثم أخذت تتطلع الى مساء السبت، بشغف غير عادي .

٦ - زيارة الى المطعم

نزلت سابرينا ببطء درجات السلم التي توءدي الى الطابق الثاني، وهي تعبث بأصابعها في عقدة الشعر المعقوصة فوق رأسها، وظهرت تقطيبة صغيرة بين حاجبيها عندما سمعت صوتي أبيها وديبورا يترددان في غرفة الجلوس فسارت نحو الباب المفتوح وتمهلت، ثم نادت سابرينا بصوت يشوبه القلق:

"ديبورا .. هل يمكن أن أراك دقيقة واحدة؟"

"طبعا."

وخطت ديبورا خطوات سريعة مكتومة فوق السجادة، وهي تسعى الى الباب حيث تقف سابرينا ثم سألتها:

"ما الأمر؟"

"هل يناسبني زي البنطلون؟"

تجهمت ديبورا في اضطراب وقالت:

"أظن أنه يناسبك. هل دعاك باي الى تناول طعام العشاء في الخارج؟"

فقالت سابرينا:

"سنلتقط شيئا من دكان المرفأ، لنأكله كما فعلنا في المرة السابقة، ثم نقوم بنزهة خلوية في مكان ما. إنه لن يصحبني الى مطعم عام."

ولمست بيدها البنطلون الفضفاض، الرمادي اللون، والمطرز بخياطة بنية غامقة، وقد انتقت له بلوزة عالية بنية اللون أيضا، وحملت على ذراعها سترة من نفس اللون، وعلقت

حول عنقها سلاسل ذهبية طويلة، وبعد أن اطمأنت الى مظهرها أردفت تسأل:

"هل كان من الأفضل أن أرتدي ثيابا أبسط؟"

صمتت ديبورا عدة ثوان حتى عثرت على إجابة تناسب سوءالها ثم قالت:

"لا أظن ذلك. قد لا تذهبين الى مطعم فخم لتتناولي فيه طعامك، ولكن لا يعد هذا سببا كافيا لأن يبدو مظهرك أشبه بقنفذ البحر. إن زي البنطلون يصلح لأي مناسبة، فيما عدا الحفلات الرسمية."

قالت سابرينا:

"حسنا...."

وتنهدت في ارتياح، إذ أصبح من الصعب عليها أن تعتمد على ذاكرتها في اختيار الملابس المناسبة منذ وقوع الحادثة. وعندما دق جرس الباب قالت:

"لابد أنه باي."

قالت ديبورا:

"محفظة نقودك فوق المنضدة، سأخبر باي بأنك في الطريق اليه."

تناولت سابرينا النقود، والتقطت العصا العاجية من فوق حامل المظلات، وعلقتها على ذراعيها، وفتحت الباب المطل على الردهة وألقت تحية وداع الى أبيها قبل أن تغلقه وراءها. وهبطت درجات السلم في لهفة وشوق، واخترقت سريعا الممر الموءدي الى البوابة حيث فتحتها وقالت بملء فمها:

"أنا مستعدة."

ولمست يد باي ذراعها بخفة وهو يقودها الى المكان الذي وقفت فيه سيارته وقال لها:

"كنت أتمنى أن ترتدي ثوبك الجديد هذه الليلة."

فضحكت سابرينا برقة:

"سأبدو حمقاء لو ارتديت هذا الثوب عند القيام بنزهة خلوية."

فقال متسائلا:

"تقولين نزهة خلوية؟ إننا لسنا عازمين على القيام بنزهة خلوية. إنني سأصحبك الى أحد المطاعم لتتناول العشاء. ألا تذكرين؟"

وعندما حاولت أن تقول:
"ولكن..."
قاطعها وهو نافد الصبر:
"ولكن ماذا؟"
قالت وهي تؤكد مخارج الكلمات بضربات من أصابعها فوق عصاها:
"أجل... أذكر ما قلته."
واحتضن ظهرها بذراعه، وهو يقودها بشدة الى السيارة وفتح الباب، وساعدها على الجلوس على مقعدها، وراحت تبحث بيدها عن مقبض السيارة، لتتأكد من أن الباب مقفل، ولكنها قبل أن تعثر على القفل، كان باي قد استدار حول السيارة واستقر على مقعده، واطبق بيده على معصمها، فقالت سابرينا:
"أنت لا تعيرني اهتمامك."
قال لها باي وهو يقود السيارة بيد واحدة لتنحرف عند المنحنى:
"لا أستطيع أن أعيرك كل اهتمامي، وأقود السيارة في وقت واحد. إننا سنتوجه الى مطعم ايطالي صغير وجميل. منظره ليس فخما من الخارج ولكن طعامه رائع."
فأعلنت قائلة:
"لن أذهب."
فقال بصوت نافذ الصبر:
"سابرينا... لايمكن الاستمرار في تجنب الأشياء التي تثير الحرج لك."
فقالت معقبة على كلامه:
"ستبدو أحمق عندما تقودني الى المطعم."
"أتمنى ألا تقيمي وزنا لما سأبدو عليه، لأنه إذا كان هو السبيل الوحيد الى أن تطأ قدمك باب المطعم، فأنني على استعداد لأن أكون أحمق."
وفي لمح البصر أدركت سابرينا أنه يعني ما يقول ولن يغير من الموقف أي بادرة عناء أو غضب تبديها، فهو يعني حقا دخول المطعم بطريقة أو بأخرى.
فقالت له بهمسة غاضبة:
"أنت قاس ومستبد. لا أعلم لماذا أتيت معك هذه الليلة... كان علي أن أتكهن بأنك سوف تتصرف معي مثل

هذا التصرف."
فقال ساخرا:
"خير لك أن تتخذي حذرك. ففي وسعي أن أغير رأيي، وآخذك الى مطعم صيني، وأضع في يدك العودين اللذين يستخدمهما الصينيون في تناول طعامهم. ولا أظن أنك تجيدين استعمالهما."
وانفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة، ولكنها أسرعت تغطي فمها براحتها حتى لا تنطلق الضحكة التي أوشكت أن تنفجر من بين شفتيها. لم تستطع أن تتقن استعمال العودين عندما كانت مبصرة، فما بالها الآن وهي عمياء؟ لابد أن منظرها سوف يدعو الى السخرية والرثاء.
ضحك باي برقة وقال:
"إنني أرى ابتسامتك التي تخفينها، وهذا يعد تقدما في سلوك القردة العمياء العنيدة، استمري في إخفائها، ولا تخجلي إذا بدا شيء منها. فالمبصرون يبتسمون دائما."
فتنهدت سابرينا وقالت بمرح:
"لماذا لا أستطيع أن أتفوق عليك في مناقشة واحدة؟"
فقال:
"لأنك يا ملكتي العمياء تعرفين حقا أنني على صواب."
ولدهشتها تناولا الطعام بدون حدوث أية نكبات، بينما اعتادت سابرينا أن ترتطم يدها بالأكواب، ويسقط الطعام على المائدة في المرات السابقة التي تناولت فيها طعامها خارج البيت عقب الحادث، أما في هذه المرة، فلم يحدث شيء من هذا القبيل، وأنذرها باي ضاحكا بأنه سيطلب لها طبقا من المعكرونة الاسباغيتي، ولكنها وجدت أمامها فنجانا من القهوة بدلا منه.
أسندت ظهرها الى مقعدها، ولمست يدها بحرص فنجان القهوة حتى تقدر مكانه تماما، وبدت تنهيدة رضا من بين شفتيها، وسألها باي برقة:
"لماذا تتنهدين؟"
فأجابت:
"لأنها وجبة ممتعة. أشكرك لأنك أجبرتني على المجيء."
فقال لها بصوت عابث:
"أفضل أن تقولي أقنعتني بدلا من أجبرتني."
قالت باسمة:

"أقنعتني بالمجيء الى هنا."

سألها بصوت حاد ولكن بنبرة مراوغة:

"ألم تشعري بالكآبة عندما علمت بنتيجة الفحوص السلبية؟"

قالت سابرينا:

"طبعا كنت أتمنى أن تكون النتائج إيجابية، ولكنني لم أعر الأمر اهتماما كبيرا لسببين: أولهما لأنك أسديت لي نصيحة، وثانيهما لأنني بدأت في العمل مرة أخرى بصورة خلاقة. عندما ذهبت هذه المرة الى المستشفى لم تكن حياتي كفتاة عمياء بلا هدف، أما في المرة السابقة فقد أصدر المختصون حكمهم ولم يكن لدي أي هدف سوى الفراغ الآن يا باي عندي هدف."

"أنت تشيرين الى ممارسة فن النحت... متى تسمحين لي بمشاهدة إنتاجك؟"

فقالت سابرينا بابتسامة:

"عندما أكون مستعدة لمواجهة النقد."

فقال باي متحفزا:

"وهل تظنين أنني سأكون مصيبا في حكمي؟"

قالت:

"لا أظن أنك ستجيز الموضوع بتقدير متوسط لأنني ببساطة عمياء."

قال:

"لا أظن أنك سوف ترتكزين على هذا المسند، أو ترتضين بخفض مستواك."

هزت سابرينا رأسها وقالت بنبرة دافئة:

"لا أستطيع، فكل ما أبتغيه هو أن أكون جيدة في عملي. أريد أن أكون عظيمة بالفن الذي أعتبره كل مستقبلي، وهذا هو السبيل الذي يفتح لي باب الأمل لأن أعول نفسي."

فسألها:

"وهذا أمر هام بالنسبة اليك... أليس كذلك؟"

استرسلت تقول:

"أجل. ليس من أجل كبريائي فقط أو استقلالي، وأنما من أجل أبي فأنا لا أريد أن أكون عبئا عليه، أنا أعلم أنه لا يفكر في بهذه الطريقة إلا أنني أعرف أنه لم يتزوج ديبورا بسببي، ولكنه سوف يتزوج عندما يكون لي دخل مستقل أستطيع الاعتماد عليه."

فقال باي مقترحا:

"أو تتزوجين، وهذا سبب وجيه لترك البيت."

فضحكت سابرينا، ولم تأخذ اقتراحه بجدية:

"هناك عقبتان تعترضان هذه المشكلة."

سألها:

"ما هما؟"

قالت:

"أولا هما: لايوجد إنسان وقعت في حبه، وليس من المعقول أن أتزوج رجلا لمجرد الرغبة في أن أترك البيت."

سألها:

"والعقبة الثانية؟"

قالت:

"والعقبة الثانية متعارضة للغاية، لأنه ليس هناك شخص يرضى بالزواج مني."

وهزت رأسها هزة متشككة في العثور على هذا الشخص.

سألها باي بسخرية:

"هل هذا الأمر بعيد الاحتمال؟"

فضحكت بهدوء مرة ثانية وقالت:

"يمكن أن يحدث.. لو وجد شخص عاقل."

قال:

"دائما أعتبر نفسي شخصا عاقلا. وأظن أن هذا وحده كفيل بأن يضعني خارج المسابقة. أليس كذلك؟"

وشعرت سابرينا ببصره يتأمل وجهها، ويتحفز لمعرفة رد الفعل وأدركت فجأة فحوى الموضوع الذي تدور حوله مناقشتهما. فأجابت بحزم:

"بالتأكيد أنت خارج المسابقة."

فقال باي:

"أظن أن ذلك يقرر الأمر."

وأحست سابرينا بأن الفتور الذي شاب صوته كان لسبب أعمق من مجرد عدم اهتمامه بردها. فربما فكر في أنها تريد أن تفوز به لثرائه.

"هل تريدين مزيدا من القهوة يا سابرينا أو تبغين الرحيل؟"

ومدت يدها فعثرت على العصا معلقة على ذراع المقعد، وقالت له:

"لا.. أشكرك. أنا مستعدة للرحيل إذا كنت أنت مستعدا."

وبعد هذا العشاء الأول الناجح، دعاها باي الى تناول الطعام خارج البيت عدة مرات، خلال الأسابيع التالية. وكانت المطاعم التي وقع اختياره عليها غير مزدحمة بالرواد، ولكنها تقدم الطعام الجيد.

وكانت ترتبك عندما يتوقف أصدقاء باي عند مائدتهما للتحية، وكانت تحس بدهشتهم عندما يعلمون أنها فتاة عمياء ويعجبون لمصاحبة باي لها.

وفي بعض الأحيان كانت هي نفسها تتعجب لمصاحبته لها، ولكن الجواب فقد أهميته، فقد كان يكفيها أنها تتمتع بصحبته دون أن تسأل عن دوافعه الى مصاحبتها، وبالرغم من أنها خرجت من قوقعة حياتها الا أنها كانت تكره مشاعر الشفقة من أي إنسان وبخاصة باي.

صقلت سابرينا بحرص ذراع التمثال الصلصال، وتركت أصابعها تنقل صورته الى ذهنها. وانتابتها رجفة خفيفة من الزهو المكبوت عندما تصورت الصورة الكاملة لتمثال راقصة الباليه التي راحت تدور حول نفسها. وازدادت ثقتها بيديها مع مرور الأسابيع وفاقت محاولاتها الناجحة عدد محاولاتها الفاشلة.

وتردد صوت خطوات أقدام ترتقي درجات السلم فتراجعت سابرينا من أمام منضدة العمل، وتراقصت ابتسامة شاحبة على شفتيها، وقامت بمسح يديها في المنشفة، واستدارت بخفة تجاه الباب في الوقت الذي اقتربت فيه الخطوات منها، وبدت في وقفتها لهفة لم تستطع أن تخفيها، وقالت عندما توقفت الخطوات عند الباب:

"ادخل يا أبي".

وعندما انفتح الباب، تمايلت برأسها استعدادا لسماع صوت القادم، ولم يكن الشخص القادم أباها.. وإنما كان باي... أدركت ذلك بغريزتها.

وسألت بدهشة:

"ماذا تفعل هنا؟ قلت إنك لن تأتي قبل السابعة. لا أظن أنها الساعة السابعة بعد فلم أنس نفسي في العمل".

ولم تتأكد سابرينا من الوقت لأن ساعتها لم تكن معها.

فقال باي:

"ليست السابعة كما تظنين. إننا في منتصف بعد الظهر. لما رأيت أنك امتنعت عن دعوتي حتى لا أرى عملك، سألت

أباك بأن يرسلني اليك هنا بدلا من أن يدعوك الى الطابق السفلي".

وتحركت سابرينا بضع خطوات في حركة دفاعية تلقائية، لكي تعترض مسار بصره، فلم يرى أحد عملها بعد سوى أبيها وديبورا، ولم تكن على استعداد للسماح لأي شخص غريب عن أسرتها أن يرى ماذا صنعت أصابعها، وتمتمت قائلة:

"هذا لا يفسر سبب وجودك هنا في هذا الوقت من النهار".

واستطاعت أن تحس بابتسامة تشوب صوته وهو يقول:

"هل حقا لا يفسر سبب وجودي؟ كنت أظن أنه ضروري، وفي الحقيقة لدي غرض آخر لتسللي الى الاستديو، إنني أود أن أخبرك بأنني الغيت عشاءنا الليلة. أنا آسف يا سابرينا".

فقالت بأستخفاف:

"حسنا...".

ولم يكن حسنا البتة! لأنها لم تكن ترغب في أن يعرف مدى شوقها الى تمضية الأمسية معه. ولم تحب أن تبوح له بذلك. فليس هناك مستقبل في هذه الدعوة، وأنما مستقبلها هنا. في الاستوديو حيث يوجد العمل.

قال باي:

"هل أشعر بالسرور أم أتألم من إهانتك لأنك تلقيت الخبر بهدوء شديد؟".

وأحست سابرينا بحركة ارتفاع حاجبه الكثيف وهو يتحدث اليها، كانت مزيجا بين الدهشة والسخرية. وأردف يقول:

"كنت أتوقع منك الأسف لإلغاء الدعوة".

قالت بصوت يتسم بنبرة كبرياء:

"كنت أتمنى أن أتمتع بالأمسية، لابد أن هناك أمرا هاما أجبرك على الغاء عشائنا. كنت أود أن تحذر صديقتك الغيور بأنها ليست في حاجة الى أن تنتزع عيني فأنا عمياء تماما وفي غنى عن تشويه وجهي".

وكانت ملاحظة سابرينا مازحة، وأجابها باي مازحا أيضا:

"ما الذي يدفعك الى الظن بأن صديقتي الغيور هي التي غيرت خططنا؟".

فقالت بابتسامة:

"لا أعرف أنها هي التي غيرت خططنا، وأن كنت أتمنى ألا تتوقع مني أن اعتقد أنك أعزب".

فقال:

"وما الذي يدفعك الى الاعتقاد بأنني لست أعزب؟"
وذكرها سؤاله بصورة وجهه الرجولي الشهم الذي تحسته بيديها، وودت لو تبين له بأن تصرفاته في عدد من المواقف التي مرت بها في الماضي تجيب على سؤاله.
ابتسمت سابرينا وقالت:
"كل فتاة لها أساليبها الخاصة لمعرفة هذه الأشياء، وأعتقد أنه نوع من غرائز الانثى."
فسألها بتراخ:
"إذا كنت تعتقدين ذلك عني، اذن ماهو رأيك في أننا لم نبلغ بعد في علاقتنا الألفة والمحبة؟"
وضحكت سابرينا كأن سؤاله يدعو الى السخرية:
"حقا... يا باي. إننا صديقان، لا أكثر من هذا."
"تقصدين علاقة أفلاطونية. أليس كذلك؟"
ورفعت جبينها إزاء ملاحظته القاسية وقالت:
"طبعا."
فقال ساخرا:
"في هذه الحالة... متى تبتعدين عن الطريق لكي يرى صديق ما عملك؟ إن رؤيتي محدودة الى حد ما بوقوفك أمامي!"
واستنتجت سابرينا أنها توهمت القسوة في سؤاله السابق، قدرت ما هو ظاهر فقط. واعترتها لحظة تردد، وظلت مكانها وكانت ترغب في معرفة رد الفعل الواقع في هذا المجال الفني. وتنحت جانبا، والخوف يعتريها لسماحها لباي بأن يتقدم حتى يرى أعمالها عن قرب. قالت بعصبية:
"بعض محاولاتي الأولى على المنضدة الجانبية. وكما ترى أنها ليست جيدة، ولكنني أتحسن ببطء. في هذه الآونة أقوم بتشكيل عدة تماثيل لراقصات الباليه. فكرت في أن أصنع تمثالا لفرقة باليه صغيرة يتوسطها راقصان.
وخيم صمت بلا نهاية، وكادت أعصاب سابرينا تحترق من طول الترقب. كانت تتوقع حدوث مفاجأة من باي. وتشابكت يداها كأنها تردد صلاة، وأخيرا سألها:
"هل شاهد أحد أصدقائك عملك؟ أقصد أصدقاءك الفنانين؟"
وحركت رأسها بالنفي قبل أن تجيب:
"فقط أبي وديبورا."
فتمتم قائلا:
"أنا لست بناقد يا سابرينا، أعرف فقط ما يروقني،

وقد تأثرت بما أراه هنا، ألم تمارسي هذا العمل من قبل؟"
وتنفست الصعداء، وقالت:
"أبدا لم أفعل هذا من قبل. هل تظن أنه عمل جيد؟ لا تقل أنه جيد حتى ترضي فتاة عمياء مثلي."
وكانت سابرينا في حاجة الى سماع استحسانه مرة ثانية.
قال لها:
"لقد عاملتك منذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها، وأنا أرتدي قفازات رقيقة أما الآن فانني غير مستعد لاستعمالها ثانية. أنت تعرفين جيدا أن ما صنعته يداك أكثر من جيد، وأستطيع أن أرى ذلك بوضوح والمتخصص هو الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يقرر مدى جودتها وإذا كنت ترغبين في الأخذ باقتراحي، عن انسان متخصص في الفن، ففي وسعه أن يعطيك الجواب الشافي."
رفضت سابرينا قائلة:
"لا.. لم يحن الوقت بعد."
وران عليها الصمت. وكانت ثقتها في قدرتها الفنية لم تبلغ بعد الدرجة التي تستطيع بها مواجهة النقاد، ثم أردفت تقول:
"أنا لست مستعدة لذلك، فانني أحتاج الى مزيد من الوقت."
فقال لها:
"أي إنسان مستعدا لسماع حكم الآخرين، ولكنه لا يستطيع تأجيل القرار الى الابد."
أبدى لها هذه الملاحظة برقة، وهو يذكرها بحاجتها العملية لرأي الاخرين، إذا كانت قد اتخذت من هذا الاسلوب التشكيلي مجالها الفني.
قالت مرددة كلامها:
"لا.. لم يحن الوقت."
وراحت تمسح راحتيها فوق القميص الخارجي الذي ترتديه وقال لها باي:
"سيكارة؟"
قالت سابرينا وهي تطلق زفرة من صدرها:
"أجل... من فضلك."
وبلغت رائحة الدخان أنفها، وهي تمد يدها لتتناول السيكارة، ولكن باي وضعها بين شفتيها، ولمست أصابعه فمها، فسرت رجفة في سلسلتها الفقرية.

قالت له بتردد:
"يوجد قهوة وكعك في الطابق الأول· هل تحب···"
وقاطعها باي رافضا:
"لا··· أنا آسف· لا أستطيع أن أمكث فترة أطول· وأحب أن أخبرك بأنه لن تتاح لي رؤيتك خلال الأسبوع القادم أيضا، ولكن بالمناسبة يوجد هناك عرض في دار الأوبرا، معي تذكرتان، هل اعتبر الدعوة مفتوحة إذا كانت لديك الرغبة في مشاهدته؟"
فابتسمت سابرينا وقالت:
"سأتمتع برؤيته·"
فقال مبتسما:
"أعدك بأنني لن أقوم بالغاء هذه الدعوة· أوه·· على فكرة هناك شيء أريد أن أقدمه لك اعتذارا عن الغاء دعوتي لك هذه الليلة·"
"تقدمه لي؟"
وتجهمت عندما سمعت حركة يده وهي تعبث في جيبه وصوت حفيف الورق، وعندما وضع في يدها علبة مغلقة طويلة ورفيعة، أشبه ما تكون بعلبة جواهر·
أمرها وهو يضحك من ترددها:
"افتحيها، ليست باهظة الثمن، إذا كان هذا ماتخشينه· يمكنك أن تقرري رميها في وجهي عندما تكتشفين كنهها·"
واعتراها الفضول وحب الاستطلاع عندما شرعت في فض غلاف العلبة، وأبعدت الغطاء، وراحت أصابعها تستكشف··· فلمست زوجين من العصي، عندئذ استدارت نحوه في تعبير حائر وسألته:
"عصي؟"
ولعق باي لسانه وقال:
"ليست تماما عصيا، وانما هما العودان اللذان يتناول بهما الصينيون طعامهم·"
ابدئي في التدريب على استعمالهما لعدة أسابيع قبل أن أصحبك الى مطعم كانتونيس في الحي الصيني·"
وجلجلت ضحكة في حلقها، وعضت شفتيها السفلى حتى تحول دون انطلاقها·
وقالت بسخرية:
"المفروض أن اقدم لك شكري لأنك وجهت لي

تحذيرا مسبقا·"
ووافق على كلامها قائلا:
"أجل··· يجب أن تقدمي الشكر لي·"
ولكن سابرينا لم تستطع التحكم في ضحكتها، فأطلقتها ثم قالت:
"وحتى بالتدريب··· فإنني لن استطيع تناول أي شيء سوى أقراص البيض او الأطباق الدسمة، أما باقي الأطعمة فسيكون مصيرها الأرض· أو مفرش المائدة·"
فقال باي مبتسما:
"سأقبل المغامرة، أما بالنسبة ليوم السبت القادم، فأعتقد أن المناسبة تتطلب منك ارتداء ثوب السهرة·"
فضحكت سابرينا وقالت:
"هل أعتبر طلبك هذا أمرا··· أيضا؟"
فقال:
"إذا كنت تعتبرينه كذلك، هل تنصاعين له؟"
فهزت رأسها وقالت:
"أجل·"
وابتسمت ابتسامة عريضة، امتدت عبر وجنتيها فخففت من شكل وجهها المربع· وكان لاستحسان باي لعملها أبلغ الأثر في نفسها لبذل المزيد من الجهد للوصول الى الكمال الذي تنشده· وهذه الحماسة المتجددة جعلت الأسبوع يمر سريعا· وكان الحفل المقام في دار الأوبرا أكبر جائزة تتلقاها لقاء مجهوداتها·
وكانت سابرينا تشعر بتوتر خفيف لمجرد ذهابها الى مكان عام ولكن هذا الشعور اختفى عندما أثنى باي ثناء طيبا على مظهرها فمنذ الحادث كانت تحس بمزيد من الألم عندما تقوم ديبورا بمساعدتها على تصفيف شعرها أو تجميل وجهها ولكنها عرفت كيف تتخلص من هذه الآلام لحظة أن بدأت تمارس عملها في الاستوديو·
ولم تعد ديبورا تشير الى المدرسة الخاصة التي ستلتحق بها سابرينا، لأنها كانت تعتمد اعتماداً كليا على المجهودات التي تبذلها سابرينا لتحقيق السعادة لكليهما·
وجاء يوم السبت، واستعدت سابرينا للتوجه الى الحفل ولم تكن في نيتها حمل عصاها العاجية، التي تعلن لجميع الحاضرين في دار الأوبرا بأنها عمياء·· ومع هذا ناولها

باي العصا وهما يغادران باب المنزل٠ وكانت تعلم مسبقا أنه يعنفها لو أنها رفضت استعمالها، لذلك لاذت بالصمت٠

وفي فترة الاستراحة بين الفصول وقفا عند مدخل المسرح وهي تحمل عصاها على ذراعها، ولو لم تكن في صحبة باي لظلت في مقعدها طوال العرض ولكنه دفعها الى الخروج الى الردهة٠

ولم يكن باي بالشخص الذي يمكن تجاهله، فإن قوامه الفارع يجذب الانتباه اليه، حتى لو لم تجذب رجولته الأنظار٠ ولذلك كانت سابرينا تعرف أنها ستكون هدفا لاهتمام الناس وتساءولهم وبخاصة أنها تحمل عصا على ذراعيها٠٠٠ وفي صحبته٠ وأخذ باي يرد على تحيات الناس، ولكنه لم يشجع أحدا على الحديث معه، ولم تكن سابرينا على يقين من سبب تجنبه الحديث معهم! اهو بسبب انزعاجها من لقاء الغرباء، أم لحملها العصا؟ وكان الرأي الثاني لا يتلاءم مع طبيعته ولذلك طرحته بعيدا عن تفكيرها٠ وتناهى الى سمعها صوت سيدة عجوز تحييه قائلة:

"باي كاميرون٠"

فالتصقت به سابرينا بلا وعي طلبا لحمايته، وأردفت السيدة العجوز تقول:

"لم أرك منذ مدة طويلة، أين كنت تخفي نفسك؟ هل هذه السيدة الصغيرة سبب غيابك عنا؟"

وحرك باي يده لتستريح على كتفي سابرينا، ودفعها قليلا الى الامام كأنه يقدمها لها:

"باميلا٠٠٠ أقدم لك سابرينا لين٠ وأنت يا سابرينا أقدم لك صديقتي العزيزة باميلا تايسن وهي شخصية فضولية محبة للاستطلاع، ولكنها طيبة القلب٠"

قالت باميلا:

"لا تصدقيه يا فتاتي، إن لدغتي سيئة وصارخة كعواء الكلب، فاحذريها يا آنسة لين٠ أنت آنسة٠٠٠ أليس كذلك؟"

قال باي:

"هل تدركين يا سابرينا ما أعنيه بأنها محبة للاستطلاع؟"

وأيدته سابرينا قائلة وعلى شفتيها ابتسامة شاحبة:

"أجل٠٠٠ أنا آنسة لين٠"

وسلمت سابرينا بأن الوصف الذي ذكره باي عن باميلا تايسن كان صحيحا فبالرغم من أنها شخصية محبة

للاستطلاع وقوية الشخصية ألا أنها طيبة القلب٠

قالت باميلا:

"نحن السيدات العزباوات يجب أن نبقى جنبا الى جنب٠ وهذا لا يعني أنني مكثت طوال حياتي عزباء٠ فقد ترملت مرتين، ويقولون ان الرجل الثالث له سحر خاص وأنت يا عزيزتي هل تنوين اقتناص عزيزنا باي؟"

أجفلت سابرينا، ثم قالت وهي تحاول أن تنفي التهمة بشدة:

"بصعوبة٠٠٠ يا سيدة تايسن٠"

"أظن أنها وصفتك تماما٠٠٠ يا باي٠"

ووافق على كلامها قائلا:

"إنها فتاة صغيرة تحب الاستقلال٠٠٠ ولا تحب الارتباط بأحد٠"

وأحست سابرينا بعدم الارتياح في نبرة صوته، فقالت له السيدة:

"*يجب أن أتعرف على سابرينا جيدا٠ أحضرها الى حفلي* بعد الاستعراض٠" وكان هذا أمرا٠٠٠ وليس طلبا، وألقت السيدة العجوز تحية وداع قبل أن تحث سابرينا باي على رفض دعوتها٠

قالت له سابرينا متوسلة عندما انفردت به:

"لا أظن أنك تنوي حقا الذهاب الى حفلها٠ أليس كذلك؟"

قال بهدوء:

"ولم لانذهب؟ إن حفلات باميلا هادئة وودية٠"

فقالت سابرينا مدافعة:

"إنني لا أرتاح الى الغرباء٠"

قال باي:

"إن الوقت كفيل بالتغلب على هذه المشكلة٠"

وكانت ذراعه على ظهرها، فدفعها الى المشي وهو يقول:

"لدينا الآن بضع دقائق تساعدنا في العثور على مقعدينا، قبل أن ترفع الستارة!٠"

٧ - حفل ودي

راحت سابرينا تعبث بأصابعها في الفراء الذي يزين سترتها المسائية السوداء، ثم دفعت الياقة حول عنقها، وتهدل ركنا شفتيها في يأس واضح، وهي تقرض شفتها السفلى، ولم يحل زجاج السيارة المغلق دون سماع صوت السيارات الأخرى الواقفة أمام المسرح.

قالت وفي صوتها نبرة يأس:

"لماذا لا توصلني الي البيت، وتذهب وحدك الى الحفل؟"

قال باي يذكرها:

"الدعوة موجهة لكلينا."

قالت سابرينا:

"السيدة تايسن لا تعرفني، ولن تفتقدني إذا لم أذهب."

أجابها وهو يبتسم بحزم:

"أجل... إنها ستفتقدك، وخاصة أنك كنت الدافع الى تقديم الدعوة."

"لم أفعل ذلك."

قال وهو نافذ الصبر:

"دعيني أعيد صياغة عبارتي. دعتنا الى حفلها بعد مقابلتها لك لأنك أثرت فيها حب الاستطلاع."

جادلته سابرينا قائلة:

"لم تتح لنا الفرصة للقبول أو الرفض، وإلا كنا أعددنا الخطط لمواجهتها."

"ليست لدينا أية خطة الآن. أليس كذلك؟ لا يوجد هناك

أي سبب يبرر عدم ذهابنا الى حفلها وبخاصة أن الوقت أصبح لا يسمح لنا للاعتذار وشمخت بأنفها في تحير وقالت.

"لا أريد أن أذهب، ويعد هذا سببا كافيا بالنسبة الي."

فأجاب باي بصوت ينم على أنه لا يرغب في مزيد من الجدال:

"لا.. ليس هذا سببا كافيا."

فقالت سابرينا وهي تحتل مقعدها:

"أنت مستبد يا باي كاميرون."

فقال برقة:

"شكرا لك."

فكررت قولها:

"مستبد."

أما وقد كبح باي جماحها بطريقته، فإنه قادها مرة ثانية الى موقف ليس من اختيارها، ولم تستطع سابرينا تركيز حواسها حتى تعرف الاتجاه الذي يتجهان اليه، وشعرت أنها لم تعد تقتفي موقع المنحنيات، ولم تعد تدرك أي الطرقات يتخذ. وكان غياب الحركة الكثيفة للمرور يشير الى أن المنطقة آهلة بالسكان، ولكنها لا تدري أي قطاع من المدينة قد بلغاه.

وابطأت السيارة في سيرها، وعندما مالت عند منعطف أعلن باي:

"لقد وصلنا."

وأوقف دوران المحرك، ولم تتفوه سابرينا بكلمة. كانت تجلس في صمت مطبق وهو يفتح الباب ويغلقه وراءه. وراحت بخيالها تراقبه وهو يدور حول السيارة ويتجه نحو بابها، وقدرت الثانية التي يقوم فيها بفتحه، فلم تتحرك من مقعدها، فقال لها ساخرا:

"هل أنت قادمة معي، أم أنك عزمت على البقاء في السيارة، وأنت مقطبة الجبين كالطفل الصغير؟"

قالت سابرينا ببرود:

"إذا كان لي حرية الاختيار، فإنني سأبقى في السيارة."

تنهد باي بصوت اتسمت نبرته الرقيقة بالصبر:

"سابرينا... هل تدعين حقا بعض الغرباء يدخلون الرعب في قلبك فتحجبين عن لقياهم قابعة في السيارة؟"

"إنهم لا يلقون الرعب في نفسي."

"أنت تخافين من الدخول الى الحفل. ما هي الكلمة التي تناسبك؟"

قالت سابرينا بتأكيد واضح:

"أنا لست خائفة."

فقال باي موءيدا ولكن صوته نم عن استنكاره:

"بالطبع... لا."

فكررت كلامها بغضب:

"أنا لست خائفة."

فقال باي ثانية موءيدا، ولكن بنفس النبرة المستنكرة:

"لايهم شعورك، فإذا كنت قد عزمت على الجلوس في السيارة فإنني أقترح إغلاق جميع الأبواب عليك. ولن أغيب عنك أكثر من ساعة."

فتجهمت سابرينا، ودفعت رأسها الى الوراء، غير واثقة عما إذا كان باي يداعبها أم أنه جاد في كلامه. فقالت له:

"أنت لن تتركني هنا وحدي."

قال لها يذكرها:

"ألم تقولي أنك تفضلين البقاء في السيارة، وعندما أدخل الى الحفل سأفسر لهم رفضك الحضور."

فقالت:

"لن تجروء على أن تخبر السيدة بأنني جالسة في السيارة."

وقابل باي تساؤلها بهدوء. هذا الهدوء الذي عبر عن عزمه على إبلاغها بوجودها فقالت مزمجرة:

"من المؤكد أنك ستفعل شيء كهذا!"

وتحولت لتخرج من السيارة، ومد يده ليتلقى ساعدها حتى يقودها الى الرصيف، وقادتهما وصيفة الى داخل المنزل، وكانت الاصوات الدافئة والورود تملاء البهو، وهي قادمة من عدة اتجاهات فأحست سابرينا بأن الحفل يضم عددا كبيرا من الضيوف، وعندما حملت الوصيفة عنها السترة، تناول باي ذراعها، وقادها الى الاتجاه الذي تنبعث منه أغلبية الأصوات، وزمت شفتيها بشدة، فهمس باي في أذنها قائلا:

"ابتسمي."

قالت:

"لا."

ولكن الكدر الأليم في تعبير وجهها خفت حدته.

ودخلا سويا الى الغرفة، وهي لا تدرك أن حالة من العظمة

قد ألمت بجيل رأسها الذي يعتلي عنقا أشبه بعنق البجعة، وكان قوامها الملكي وثوبها الناعم المتألق بألوان اللهب قد جذبت اليها الأنظار، كما جذب أيضا باي. ولما كان هو معروفا لأغلب الحاضرين، فإن التحيات كانت توجه اليه وحده.

ولم تعرف سابرينا واحدا منهم، فأخذت أصابعها تضرب على مقبض عصاها العاجية، فكشفت عن الاضطراب الذي يموج في اعماقها لمجرد وجودها في غرفة مليئة بالاغراب.

وتناهى من الجهة اليمنى صوت معروف لديها، وكان صوت السيدة باميلا تايسن ينادي عليها:

"باي.. سابرينا.. أنا سعيدة بقدومكما."

وعندما وصلت اليهما السيدة تايسن ألقت عليها سابرينا كلمة مرحبا ولم تكن تبغي الكذب عليها فتقول لها أنني سعيدة لوجودي في الحفل.

خشخشت الأساور في رسغ المرأة العجوز، وصافحت سابرينا التي أحست بأن أصابع السيدة تايسن مزينة بالخواتم الصغيرة والكبيرة كما أنها تتعطر بعطر له رائحة البنفسج.

قالت المرأة العجوز في لهجة آمرة:

"عزيزي باي... اذهب واحضر شرابا لي ولسابرينا.. سأتناول شرابي المعتاد وأحضر نفس الشراب لسابرينا."

قالت سابرينا معترضة:

"في الحقيقة... إنني لا أميل كثيرا للشراب."

ولكن باي كان قد انصرف لاحضار الشراب كما أمرته السيدة تايسن قبل أن يسمع اعتراض سابرينا.

تمتمت السيدة تايسن قائلة:

"أنا اعتدت على أن أتناول الشاي المثلج. هذا سر بيني وبينك. يتوقع الضيوف دائما من المضيفة أن تشاركهم الشراب، فإذا كفت شعروا بالحرج في مواصلة احتسائه بحرية، وحتى أجاريهم أتناول الشاي المثلج الذي يشبه الشراب تماما لكي ينطلقوا على سجيتهم. استرخي يا عزيزتي، فلن أحاول أن أطلق لسانك بتناول المشروبات الروحية."

فقالت سابرينا:

"أشك في أنك تستطيعين."

قالت السيدة تايسن:

"لك روح مرحة.. أحبها. أنا جدة باي هل أخبرك بذلك؟"

قالت سابرينا:
"لا".
وأخذت تتساءل هل هذا هو سبب فضول السيدة تايسن بشأنها. قالت المرأة العجوز:
"أبواه يقضيان شهر عسل ثان في أوروبا. ولويز.. اقصد أم باي تعتبر بالنسبة الي من صديقاتي القويات".
وأيدت سابرينا كلامها قائلة:
"أشار باي الى وجودهما في أوروبا".
ولم تتمهل السيدة تايسن لحظة إذ قالت بسرعة:
"أنا معجبة بعصاك. أظن أنها عاجية... أليس كذلك؟ قطعة فنية ورشيقة أيضا، أين عثرت عليها:"
قالت سابرينا بتردد:
"إنها هدية... من صديق".
سألتها المرأة في عجلة:
"صديق خاص؟"
قالت سابرينا باقتضاب:
"صديق".
سألتها:
"منذ متى أصبحت عمياء يا سابرينا؟"
"منذ عام تقريبا".
ورفعت رأسها وكأنها لا تريد أن تطرق أية أسئلة حول ماضيها فسألتها السيدة تايسن:
"ومنذ متى تعرفين باي؟"
وبدأت سابرينا تلتقط أنفاسها، إذ كانت تأمل في أن تتحول دفة الحديث الى موضوعات لا تتصل بها شخصيا، وعلى أمل ألا تضيق بها المرأة الأخرى قالت:
"حوالي شهرين... يا سيدة تايسن".
ولم تستطع سابرينا مواصلة الحديث، إذ تمتمت السيدة تايسن تقاطعها: "ها هو قادم معرفتك به ليست طويلة".
ثم التفتت وأردفت تقول:
"باي... شكرا لك".
وقال باي:
"إليك كأسك يا سابرينا".
مدت سابرينا وتناولت كأسا مثلجا. فاستطرد باي يقول:
"كيف سارت الأمور بينكما أثناء غيبتي؟ إنني أرى في

ميل رأس سابرينا أكبر دليلا على أنك يا باميلا كنت تنهشين لحم أحدهم".
وقالت باميلا ضاحكة تصحح قوله:
"لا أنهش لحم أحد يا باي، كنت أحاول أن أعرف المزيد عن سابرينا لديها هالة ملكية. أليس كذلك؟"
فقالت سابرينا معترضة:
"من فضلك... أنا".
ولكن السيدة تايسن قاطعتها، لتتم العبارة التي بدأتها سابرينا فقالت:
"...لا أحب أن يدور الحديث عني، أو ينهش أحد لحمي في غيبتي وأنا أعرف تماما ما تعنيه يا سابرينا، لأنني أمقته وأزدريه، وكل ما عنيته لا يعدو أن يكون ثناء. أنا وسابرينا في غنى عن حكم يحكم بيننا. لماذا لا تتجول يا باي بين الضيوف أو تفعل شيئا؟ اترك سابرينا معي لمدة ساعة، وسأعتني بها".
واستدارت سابرينا في اتجاه باي، وانفجرت شفتاها في رجاء صامت ألا يدعها وحدها. وظنت لوهلة أنه سيعارض طلب المرأة الأخرى إلا أنه قال بصوت هادئ:
"أنت في أيد أمينة يا سابرينا. سأراك في وقت قريب".
وزمت سابرينا شفتيها في غضب عندما رحل باي عنهما، لأنه أولا حملها على المجيء الى هذا الحفل الحاشد بالغرباء، وثانيا ها هو ذا يهجرها لتجابه الموقف وحدها. وسرى الاضطراب تحت سطح عجزها عن الهروب من الموقف الذي وقعت في شراكه، وهي تصبح تحت رحمة المحيطين بها..
تأبطت السيدة تايسن ذراع سابرينا وقالت لها:
"هيا بنا يا عزيزتي. دعيني أقدمك للضيوف. أحاول دائما أن أختار أصدقائي بعناية، وبهذا نتجنب لقاء أي شخص متعجرف".
وراحت سابرينا تكز على أسنانها في صمت وهي مجبرة على أن تسير في صحبة مضيفتها، ووجدت صعوبة في أن تطابق اسم الشخص على صوته لتعدد الأشخاص الذين تعرفت اليوم.
ولم تجد أية ملاحظة أو تعليق على فقد بصرها، وأنما دار الحديث حول الاستعراض الذي أقيم في دار الأوبرا، وكانت مجموعة من الناس الذين التقت بهم في الحفل قد رأوها

في المسرح، فسألوها عن رأيها في الاستعراض، وكان اهتمام الجميع بها نابعا من شعور بالود والمحبة وليس شعورا بالشفقة نحوها. وأحست سابرينا أن استعدادها للتحفز للدفاع أخذ يتلاشى تدريجيا.

قالت السيدة تايسن بصوت يحمل لهجة الأمر:

"تومي لماذا لا تدع سابرينا تأخذ مكانك، وتجلس الى جوار السيدة فيلبس ثم التفتت الى سابرينا وقالت:

"ذراع المقعد الى يسارك يا سابرينا."

وكانت سابرينا قد شربت الشاي، فتناول احدهم الكأس من يدها، ولكنها كانت تضيق ذرعا من فشلها في التوفيق بين أسماء الاشخاص وأصواتهم وهذا ما أدركته باميلا تايسن، فعلمت على توفير أسباب الراحة لها حتى تشعر أن باي كان على صواب عندما قال أنه تركها في أيد أمينة.

قالت السيدة فيلبس:

"هذا ثوب مدهش للغاية يا آنسة لين."

وأدركت سابرينا أن السيدة التي تجلس الى يمينها وتحدثت اليها هي السيدة فيلبس التي قدمتها لها باميلا. وأردفت السيدة فيلبس تقول:

"لاحظته وأنا في المسرح."

وواصلت السيدة فيلبس تطري الثوب بإسهاب، وأشارت الى أنها تجد صعوبة في العثور على ثياب تناسب قوامها، وأصغت لها سابرينا دون أن تقطع عليها حديثها المسترسل.

وبدأت سابرينا تشعر بوخز خفيف في المنطقة الحساسة من ظهرها وأدركت في الحال السبب. كان باي كاميرون يقف في مكان ما بالقرب منها ولم يخطيء احساسها مطلقا ولكنها تظاهرت بالاهتمام بحديث المرأة، بينما كانت أذناها مشدودتين الى التقاط صوته ليحدد لها مكانه.

وفجأة سمعت صوتا أجشا مألوفا لها لأحدى السيدات، ولكنها لم تستطع تحديد المكان الذي استمعت فيه اليه. قال الصوت:

"عزيزي باي. لم أتوقع رؤيتك هنا؟"

وأجاب باي بهدوء:

"كانت مفاجأة لي أيضا أن ألتقي بك هنا. ظننت أنك لاتهتمين كثيرا بحفلات باميلا. فهي تمتاز بأنها أكثر هدوءا من تلك الحفلات الصاخبة التي ترتادينها."

قال الصوت:

"يمكن للفتاة أن تغير رأيها."

فقال باي:

"وفي وسع الرجل دائما أن يتساءل لماذا؟"

قالت:

"رأتك عصفورة صغيرة في المسرح الليلة، وأفضت بكلمة في أذني، فتكهنت بأنه من المحتمل أن تحضر بلبلك الصغير الى حفل باميلا."

فسألها:

"وهل صدق حدسك؟"

قالت:

"لا أظن أنني أدرك سر هذا الفيض من الاحسان الذي تغدقه عليها أعني... لماذا تهتم اهتماما شخصيا بهذه المسكينة؟ لماذا، لا تمنحها قدرا من المال تنفقه بأسلوبها؟ يمكنك أن تتدبر الأمر." وتجمدت سابرينا في مقعدها. ولم تحتمل أي تجريح لكرامتها، وما من شك في أن فقد بصرها أكسبها حدة السمع، وهي وحدها دون الآخرين استطاعت أن تسمع الحديث الذي دار بين الفتاة وبين باي.

تمتم باي بصوت منخفض:

"هل هذا موحلك للموقف يا روني؟ عندما يعالج الناس موضوع الرحمة والرأفة والشفقة، أنت وحدك تتراجعين الى صفوف الذين يتحدثون عن العذاب والألم والغضب."

روني هذا اسم الفتاة التي كانت بصحبته عند ميناء اليخوت في ذلك اليوم. وتذكرت سابرينا أن باي قال أنهما سيتوجهان للاستمتاع بحمام شمس في عرض البحر، وقضاء وقت شاعري.

وتكلمت الفتاة التي تدعى روني ثانية:

"من السيء جدا أن تكون عاطفيا يا باي."

وكان صوتها همسا، لم تقو سابرينا على التقاطه إلا بصعوبة. فقال لها:

"ليس في كل الأحوال."

وشعرت سابرينا بأنه مسرور وبدأ الدم يغلي في عروقها، والتوتر يفور بحرارة في أطراف شرايينها. وانتابها احساس بأن الفتاة قد تحركت واقتربت منه في ود ومحبة لتقول له:

"أخبرني يا عزيزي: هل تحاول أن تستغل فتاة عمياء

لكي تثير غيرتي؟ ألا يبدو هذا السلوك مثيرا للضحك؟" فقال باي دون أن ينفي عنه التهمة:

"لماذا؟ إنها فتاة جذابة."

وعادت روني تذكره قائلة:

"ولكنها عمياء. أعرف أنك تشعر بالاسف لها. ولكنا نشعر بالشفقة لمن هم أقل حظا منا. كم قاس على فتاة مثلها أن تكتشف أن كل اهتمامك بها لا يعدو أن يكون شفقة. لا أعتقد أنها سوف تشكرك."

فقال باي متراجعا:

"أنا أعرف سابرينا. إنها قد تصفع وجهي لو..."

ولم تستطع سابرينا أن تلتقط بقية عبارته. فقد سمعت ماكفاها وتقلصت أمعاؤها، فشعرت بالآم حادة تمزق أحشاءها، وراح غثيان يجتاح جسمها في حلقات موجعة، ونهضت لتقف على قدميها دون أن تكترث لحديث السيدة فيلبس المسترسل، وقاطعتها قائلة:

"أعذريني يا سيدة فيلبس."

ثم التفتت ونادت:

"سيدة نايسن!"

وأسرعت مضيفتها بالوقوف الى جانبها وقالت لها:

"نعم يا سابرينا."

وابتلعت سابرينا ريقها، وهي تحاول أن تهدىء من أعصابها المتوترة، وأن تجعل صوتها يبدو طبيعيا ما أمكن. سألتها:

"هل يمكنك أن تقوديني الى حجرة التجميل؟"

"طبعا - هذا هو الطريق. تعالي معي."

وامسكت السيدة تايسن بيدها، وسحبتها من وسط المجموعة الصغيرة وسألتها باهتمام شديد:

"هل أنت بخير يا سابرينا، يبدو وجهك شاحبا. هل أنت واثقة من أنك بخير؟"

واجتهدت سابرنيا في أن ترسم ابتسامة على شفتيها وهي تجيب:

"بالتأكيد أنا بخير."

تناهت اليها الأصوات في الغرفة عالية النبرة، وحاولت أن تصم أذنيها في يأس مميت عن سماعها.

قادتها باميلا الى حجرة التجميل.. وأخيرا قالت لها:

"ها قد وصلنا الباب الى يسارك مباشرة."

توقفت سابرينا، وحددت بطرف عصاها المسافة التي تقع بينها وبين الباب قبل أن تستدير الى مضيفتها وتقول:

"شكرا لك يا سيدة تايسن."

وقالت لها السيدة بتردد:

"هل ترغبين في أن أدخل معك؟"

كانت سابرينا تنشد الانفراد والهدوء حتى تستجمع حواسها المضطربة لذلك قالت لها:

"لا... ليس ضروريا."

"إذن سانتظرك خارجا."

فقالت سابرينا بسرعة:

"لا. إنني أستطيع أن أعود وحدي. ولا يمكن أن أبقيك بعيدا عن ضيوفك أعطيني فكرة عن مكاني، وسوف أجد طريق العودة. لا خوف علي... مادمت أتبع الارشادات."

وترددت السيدة العجوز قبل أن ترشد سابرينا الى طريق العودة الى مكان الرئيسي للحفل وشكرتها سابرينا متأكدة من رحيل مضيفتها وأنها لم تعد تراقبها، وتبينت أن الغرفة لا يشغلها أحد سواها، وأصبحت ملكا خالصا لها، كما أن الباب المغلق قد خفض الأصوات الى همهمة ضعيفة.

وبدأت تستكشف المكان بعصاها، ولمست بطرفها ساق المقعد فأطلقت زفرة عميقة وهي تغوص بجسدها في الوسادة الصغيرة المخملية وعثرت على منضدة أمامها أراحت ذراعيها على سطحها الأملس، ولم يساعدها الصمت المطبق في التوقف عن الاستغراق في افكارها.

كانت دائما تتعجب، وكانت دائما تتساءل عن السبب الذي يدفع باي الى رؤيتها. كانت بينها وبين نفسها توقفت عن الاعتقاد بأنه يراها بدافع من الشفقة، لكنه منذ لحظات استعمل كلمة الرحمة والرأفة ومع أن هذه الكلمة الأخيرة التي تعد أقل تجريحا لها، إلا أنها لم تخفق من الطعنة النجلاء التي تلقتها عن الحديث الذي استمعت اليه منذ قليل وعندما أمضى امسية أو أمسيتين خلال الأسبوع الماضي لم يكن بدافع العطف وحده وإنما اتخذها وسيلة لكي يثير الغيرة في قلب روني.

وأطبقت أصابعها في قبضة شديدة، ولعنت قدرتها الحادة على السمع، وتمددت في صمت ولكن لا... إن صوتا

في داخلها أخذ يؤنبها كان عليها أن تشعر بالسرور لأنها نظرت اليه كصديق وليس أكثر من هذا، وتبينت حقيقة أمره قبل أن تخطيء تفسير اهتمامه بها. كم هو رهيب لو أنها بدأت تهتم به كرجل!

وبرزت أمامها مشكلة! ماذا تتوقع ان تكون الخطوة التالية هل يتحتم عليها أن تواجهه بما عرفته؟ هذا ما تريد أن تفعله. إنها ترغب في أن تلقي بكلمات الاحسان والشفقة في وجهه، ولكن ما النتيجة التي تتوقعها. أنه سوف ينكر ببساطة كما فعل في المرات السابقة.

كانت سابرينا تعرف أن باي كاميرون شخص بارع الذكاء، بعيد النظر وهذا أمر يتحتم عليها عدم مناقشته وقالت لنفسها انظري الى الطريقة التي دفعك بها الى قبول العصا العاجية التي تستعملينها الآن، ثم تناول العشاء في المطاعم العامة، وأخيرا الحضور في هذه الليلة الى الحفل حيث تلتقين مجموعة من الغرباء. حسنا أن هذا الحفل أشعل النار في الموقف. والآن أدركت حقيقة الألوان التي يتلون بها سلوكه.

وانفتح الباب، ودخلت امرأة حيتها بصوت كان مألوفا لديها، ولكن سابرينا لم تستطع أن تتذكر اسمها، وبلا وعي تحسست الشعر المرسل على كتفيها وهي تتظاهر بتسوية مظهرها أمام المرآة، على أمل الا تظل المرأة مدة طويلة في الغرفة، ولسوء حظها مكثت المرأة، وكانت كل دقيقة تمر تدق في رأسها دقا عاليا.

وعندما رحلت المرأة قررت سابرينا الا تطيل مكوثها حتى لا تثير الشك فقد ظلت في الغرفة فترة معقولة، ولا ترغب في أن ترسل السيدة تايسن أحدهم للسوءال عنها. وتمنت وهي تقف على قدميها لو أنها تستطيع أن تتسلل من المنزل، لأنها لا ترغب في الرجوع الى الحفل، حيث أصبحت الأصوات كابوسا يؤرقها.

سألت نفسها عن وجهتها وهي تفتح الباب الموءدي الى القاعة. إذا نجحت في التسلل خفية فهناك احتمال ضعيف في العثور على سيارة أجرة تقوم بجولة في هذه المنطقة، أما اذا فشلت في محاولتها في التسلل وعادت مع باي في سيارته، فإنها تشك كثيرا في أن تمسك لسانها ولا تتحدث معه خلال عودتهما الى البيت.

وكان تفكيرها مركزا في البحث عن وسيلة للتسلل،

عندما تعثرت في منضدة صغيرة كانت موجودة بجوار أحد جدران القاعة. وبحثت يدها غريزيا عما قد يكون موجودا فوقها حتى تحول دون سقوطه على الارض، فعثرت على زهرية بدأت تتأرجح فأسرعت بتثبيتها. وعندما شرعت في سحب يدها أصطدمت أصابعها بجسم ناعم، مألوفا لديها، وكان الجسم سماعة تليفون.

أخيرا... وجدت حلا لمشكلتها!

التقطت السماعة، وأدارت سريعا بأصابعها قرص الهاتف تطلب الدليل ليعطيها رقم إحدى شركات سيارات الأجرة، ولم تحاول أن تفقد ثانية التفكير وطلبت رقم هاتف الشركة. وعندما سمعت صوت مسؤول الشركة قالت له بأدب:

"من فضلك... هل يمكنك أن ترسل..."

وتوقفت سابرينا عن مواصلة الحديث. لم تكن تعرف أين هي الآن، وانتشلها من حيرتها صوت أقدام تقترب فقالت للمسؤول:

"انتظر قليلا..."

والتقطت نفسا عميقا، واستدارت نحو الشخص القادم وسألته:

"من فضلك... هل يمكنك أن تخبرني بعنوان هذا المنزل؟"

فأجاب صوت سيدة قائلا:

"أجل يا سيدتي..."

وأعطتها عنوان المنزل. وكان الأدب الجم الذي اتسم به الصوت النسائي دفعها الى أن تسألها:

"هل أنت الوصيفة؟"

قالت السيدة بصوت ينم عن أنها لاحظت العصا البيضاء في ذراعها:

"أجل يا سيدتي."

فسألتها سابرينا:

"هل يمكنك أن تأتيني بالسترة؟ إنها مصنوعة من الفراء الأسود."

"حالا... يا سيدتي."

وعندما ابتعدت عنها الأقدام، رفعت سابرينا يدها من فوق السماعة وأعطت للمسؤول العنوان، ووعدها بوصول السيارة بعد دقائق قليلة. ووضعت السماعة في مكانها، واستدارت لتبتعد عن المائدة وهي تشعر بالانتصار الذي حققته.

وسمعت خطوات تقترب منها من نفس الاتجاه الذي رحلت منه الوصيفة منذ لحظات ولم تكن سابرينا على يقين من أنها الوصيفة، فتوقفت أنفاسها وهي تخشى أن يكتشف أمرها باي أو السيدة تايسن بين لحظة وأخرى، ولكن الخطوات كانت للوصيفة عندما قالت لها:

"إليك السترة يا سيدتي، هل أساعدك على ارتدائها؟"

فوافقت سابرينا بعصبية:

"من فضلك."

وساعدتها الوصيفة على ارتداء السترة وسألتها:

"هل أخبر السيدة تايسن برحيلك؟"

فكذبت سابرينا عليها قائلة:

"لا... ليس ضروريا، أنني أخبرت السيدة تايسن برحيلي منذ فترة. ستصل سيارة أجرة حالا. سأنتظرها في الخارج. هل يقع الباب الخارجي أمام الصالة مباشرة؟" فقالت الوصيفة:

"أجل يا سيدتي، ولكن الضباب كثيف هذه الليلة، وخير لك أن تنتظري في الداخل."

كانت سابرينا تخشى أن ينكشف أمرها، وهي على مقربة من تحقيق هدفها فقالت:

"أفضل أن استنشق بعض الهواء الطلق."

قالت الوصيفة مستسلمة، وهي تنسحب في هدوء:

"حسنا يا سيدتي."

وأخذت تتحسس بسرعة سبيلها بما تسمح به عصاها، وأحست أنها تقوم برحلة طويلة وهي تقطع المسافة التي تقع بين الصالة والباب الخارجي وكانت راحتاها تتصببان بالعرق وهي تفتح الباب، وتنطلق في الظلام.

وهدأ الهواء البارد من أعصابها المضطربة، وتحركت بعيدا عن الباب وهي تتلمس الأسوار القائمة على جانب المدخل. كان الضباب ثقيل الوقع على وجهها، وجدران المنزل الكثيفة تحول دون بلوغ الأصوات الى مسامعها.

وشاعت ابتسامة عريضة على شفتيها وهي تتخيل اضطراب باي عندما يكتشف رحيلها، سيدفعه احساسه بالشفقة الى بذل الكثير من أجل سلامتها، ولكنها كانت تعلم أنه لن يمضي الوقت الطويل قبل أن يسأل الوصيفة عنها، سوف تخبره أن سابرينا استقلت سيارة أجرة، وسيغضب ولكنها لن تأبه كثيرا لغضبه. ومهما كانت تدين به لمساعدته لها،

وصداقته المزعومة، فإنها قد سددته له الليلة على أكمل وجه.

وأحست أن الوقت يمضي بطيئا، وكان يتضاعف في نظرها عندما كانت تنتظر بقلق حدوث شيء، وظلت وراء الأسوار حتى لا يراها أحد المدعوين ممن يهمون بمغادرة الحفل مبكرا. وفجأة سمعت صوت محرك سيارة مقبلة عبر الطريق، وتمهلت حتى تعرف ما إذا كانت السيارة قد وقفت أمام المنزل أم استمرت في سيرها ولكنها توقفت عند المنعطف، ودوى صوت قفل الباب.

وعندما خطت سابرينا الى الأمام سألها صوت رجل برقة:

"هل طلبت سيارة أجرة يا سيدتي؟"

قالت:

"أجل."

وسارت بسرعة نحوه، وكان الانتصار يحمل خطواتها على أجنحته وانفتح باب السيارة واستخدمت الصوت في تقدير المسافة، وأمسك الرجل مرفقها بيده ليساعدها على الدخول اليها. فأردفت تقول:

"أريد أن تأخذني الى..."

ولم تستطع أن تتفوه بعنوان بيتها، وتوقفت الكلمات عند طرف لسانها عندما سمعت باب المنزل يفتح، وارتجفت حتى وقف شعر رأسها، وتجمدت أطرافها حتى عجزت عن الحركة، وبذلت المحاولة لكي تدلي بالعنوان. فليست هناك فسحة من الوقت، ولكن خطوات باي كانت أسرع منها.

وعندما حاولت أن تنزلق الى المقعد الداخلي، التفت ذراع حول خصرها واستقرت يد فوق بطنها تحول بينها وبين دخول السيارة، وتجذب جسمها الى الرصيف.

قالت صارخة:

"دعني أرحل."

وراحت تقاوم ذراعه الصلبة التي امسكت بها بشدة فأمرها باي:

"التزمي الهدوء يا سابرينا."

وسمعت صوت حفنة من النقود تخرج من جيبه وهو يقول:

"أنا آسف لا ستدعائك بلا ضرورة. سآخذها أنا الى بيتها."

فاعترضت سابرينا بشدة وقالت:

"لا أريد أن أذهب معك."

ووقف السائق ساكنا، وكانت تعلق أملا في أن يصبح

حليفا لها فوجهت اليه حديثها:

"ارجوك.. أخبر هذا الرجل أن يدعني لوحدي."

فسألها باي بأدب:

"هل تطلبين من الناس التدخل في خلافاتنا؟"

وكان سؤاله إشارة الى وجود خلاف بسيط بين رجل وامرأة، وقدم باي اعتذاره للسائق وأخبره بأنهما في غنى عن مساعدته.

وتناول السائق النقود متمنيا حظا سعيدا لباي، وعندئذ أدركت سابرينا أن محاولة الهروب قد باءت بالفشل. وتوقفت عن النضال من أجل إطلاق سراحها من القبضة الحديدية عندما سمعت السائق يغلق الباب الخلفي للسيارة، ويلتف حولها متجها الى الجانب الآخر منها.

وأدار باي جسمها يمينا فاستقرت يده على جنبها عندما أجبرها على السير بعيدا عن السيارة التي شرعت في الرحيل. ولم يحاول أن يعود بها الى المنزل وانما اتجه بها الى سيارته التي كانت تقف عند المنعطف الواقع على مبعدة من الطريق.

وسألها بتجهم:

"هل يمكنك أن تقدمي لي تفسيرا لكل ما حدث؟"

فأجابت سابرينا:

"بالتأكيد الأمر واضح للغاية. أنا عائدة الى البيت."

قال:

"إذا كنت ترغبين في الرحيل، لماذا لم تبحثي عني وتخبريني برغبتك؟ لم أقل أنه من المحتم البقاء في الحفل حتى آخر دقيقة."

وشعرت بأصابعه تغرز في خصرها. فقالت بعنف:

"لا أريد منك أنت أن تأخذني الى البيت. هذا هو التفسير!"

قال بغضب بدا واضحا في صوته:

"إذن كان يتحتم عليك ترك عصاك وراءك حتى لا يفطن أحد الى رحيلك؟"

ورفضت أن يوعز اليها بالفكرة بهذا الاسلوب فقالت له:

"لو تدبرت الأمر.. لكنت فعلت.."

سألها:

"لماذا ترفضين فجأة أن آخذك الى البيت؟"

فقالت سابرينا بغطرسة:

"لا حاجة بي الى تقديم أي تعليل."

أخبرها بكبرياء:

"أجل.. لا حاجة بك، ولكن أنا في انتظار سماع هذا التعليل اليوم."

وصمت سابرينا برهة، وشاركها باي صمتها، ولكنها تحدته بجرأة وهي تميل نحوه برأسها ليرى الكراهية في ملامح وجهها. وأخيرا خرجت من صمتها، وقالت:

"لأنني ضقت ذرعا بشفقتك نحوي ووصايتك علي أنني لا أحتاج اليك أو لاي شخص يشعر نحوي بالأسف."

قال:

"ماذا تقولين؟"

واستطاعت أن تحس بالتجهم في نبرة صوته!

قالت بصوت يشوبه الاضطراب:

"اذهب وأنضم الى فريق الكشافة."

واستمرت باضطراب:

"لقد سئمت حسناتك."

فانفجر قائلا:

"الشفقة! هل هذا ما تفكرين أنه شعوري نحوك."

ففغرت سابرينا فمها لتقابل ثورته بالمثل، وفي اللحظة التالية اندفعت نحوه، فأطاح عنف الحركة بعصاها لتقع على الرصيف وشعرت بذراعه تحيط منكبيها وتهزها بعنف ومن ثم ضمها بقسوة الى صدره.

فقالت تتهمه بهمس انبعث بين أنفاسها المتقطعة:

"أنت قاس.. ومستبد... يا باي كاميرون."

فقال بكلمات قاسية تحمل على أطرافها نبرة السخرية:

"لابد أن أشنق مثل قديس أخطأ."

وكما بدأت الأحداث فجأة.. انتهت بأن أمسك باي بذراعها، وشعرت بأن توازنها قد اختل تماما. وانقلبت الأمور رأسا على عقب، إنه عالم مقلوب الأوضاع عاشته في دنياها المظلمة، وهذا كله بسبب باي، قال لها:

"ادخلي السيارة."

وكانت ردة فعله أشبه بصفعة قاسية على وجهها. وبالرغم من الهزة المفاجئة التي أعادتها الى الواقع إلا أنها لم تقو على الحركة فاضطر باي في النهاية الى أن يجرها.. ويحملها... ويضعها في المقعد ولم يعد اليها صوتها حتى استقر باي في مقعده وراء عجلة القيادة، وبدأ في

الابتعاد بسيارته عن المنعطف. فقال:
"باي..."
وكان صوتها ضعيفا لا يعدو أن يكون همسا ولكن باي قاطعها قائلا:
"اصمتي يا سابرينا."
وأحست من نبرة صوته أن كلماته كانت تخرج من بين أسنانه.

٨ - رحلة بحرية

أطاعت سابرينا أمره.. فلم تتفوه بكلمة خلال طريق عودتها الى المنزل. كان الجو متوترا، والخوف الشديد من مجرد التفكير في الحديث يؤرق مضجعها. لم يكن الخوف من تنفيذ وعيده، وإنما كانت تخاف من نفسها، من أن تضعف أمامه.

فمازالت تشعر بضربات قلبها وكأنها تركب قطارا سريعا لا تستطيع الوثوب منه. منذ أن ضمها الى صدره بعنف.

وكان اسوأ ما في الامر أنها لم ترغب في أن تمحو ذكراه. وكان ذلك سبب الخوف الذي دام يطاردها يومين عقب ما حدث في بهيم تلك الليلة. ساءلت نفسها مرة ومرة لماذا استعمل معها تلك الطريقة؟ هل هو الغضب أم رغبته في تغطية فشله.

وكان هذا هو التفسير الوحيد عن تساؤلها.. في أطار الحديث الذي استمعت اليه في الحفل، ومن المحتمل أن يكون هو الرابطة بين أشياء عديدة.

ولم تضع سابرينا في اعتباره أن يكون الحب هو الدافع لأنها لا تعتقد بأن الزمن سيجود عليها برجل ما تلتقي به.. يحبها حقا.. ويرغب فيها، كما أنها لا تتصور أن يكون باي كاميرون هو.. هذا الرجل. فإن باي له مكانته وثراؤه وجاذبيته ومظهره، وهناك العديد من السيدات يتقن الى الوقوف بجواره باشارة من أصبعه.

إن فقد بصرها مس قلبه ولا أهمية للصفة التي توصف

بها عاطفته نحوها هل هي الشفقة.. الرحمة.. الحنان. كل هذه الصفات واحدة، ومن منبع واحد.

واعتصر الألم قلبها، وحدثتها كبرياؤها بأنها لا تستطيع أن تعتبر باي صديقا، لأن الصديق ربما يرثي لحالها، ولكنه لا يسعى الى صحبتها لمجرد أنه يشعر بالاسى لها. وعرف قلبها السبب الرئيسي الذي يدفعها الى ان تلفظ باي من حياتها. فقد توقفت عن التطلع اليه كصديق، وبدأت تفكر فيه كرجل، وكان هذا التصور غباء منها.. مدمرا لها.

وتراقص نشيج على أوتار حلقها.. هزها من مفرق رأسها الى أخمص قدميها، ولم تتمالك سابرينا نفسها، فألقت بوجهها بين راحتيها، وهي تشعر بالتعاسة والوحده وتشعر بالاسى لنفسها ولا تأسف لها.

ورن جرس الهاتف، قبل أن تطلق العنان لدموعها، وأنكرت سابرينا رنينه الذي استمر فترة. وكانت ترغب بتجاهله، فتركته يواصل الرنين حتى يسأم المتصل، ويكف عن طلب مكالمته. ولكن سابرينا خشيت أن يكون أبوها هو المتصل، وأدركت أنه ليس من حقها أن تتسبب في إزعاجه، فنهضت ورفعت السماعة، وقالت بصوت هادئ:

"منزل لين."

"سابرينا."

كان صوت باي المنخفض هو الذي بلغ مسامعها، فاهتزت له حتى كادت السماعة تسقط من قبضتها، وسرى في أوصالها حتى زلزل ركبتيها فأسرعت تبحث عن مقعد لتستند اليه.

سألها صوته الغاضب عندما تقاعست عن الاجابة بسرعة:

"هل أنت منصتة لي، يا سابرينا؟"

قالت بصوت متوتر:

"أجل.. أهلا.. يا باي!"

سألها:

"كيف حالك؟"

ولم يكن سؤاله عرضياً، وأنما كان يشوب نبرته الحذر.

قال بصوت بعيد ولكنه مهذب:

"حسن.. وأنت كيف حالك؟"

ولكن باي تجاهل تساءولها وقال:

"أنت تعرفين لماذا طلبتك، أليس كذلك؟"

فسألته بعدم اكتراث:

"وكيف لي أن أعرف؟"

سألها:

"هل تتناولين طعام العشاء معي مساء السبت؟"

كان اقتراحه تحديا وتوارد الى ذهنها أن باي يختار دائما ليلة السبت، لأنها الليلة التي يخصص فيها أبوها وقته لخطيبته ديبورا. وكانت سابرينا تمضيه في أغلب الأوقات وحدها قبل أن تتعرف على باي. وتذكرت أنها طلبت بالامس صديقتها القديمة سالى جودين لتمضي معها أمسية السبت. فأجابته بصوت كله صدق يتسم بنغمة الانتصار:

"لقد اتفقت مسبقا على عدة لقاءات."

فقال ساخرا. كأنه يثير الشك في كلامها:

"أحقا كذلك؟"

قالت سابرينا مستدركة:

"إني أعرف أشخاصا آخرين سواك يا باي."

فسمعت تنهيدة غاضبة عبر الهاتف ثم قال:

"هل أفهم من ذلك أنك نظمت مواعيدك لتكوني مشغولة مساء السبت؟"

فهزت كتفيها وقالت بصوت لا ينم عن التأييد أو النفي:

"افهم كما تحب!"

"هل أفهم أيضا أنه بسبب عصبيتي في تلك الليلة، اتخذت قرارك بعدم رؤيتي مرة أخرى؟ لقد أثرت غضبي عندما هربت من المنزل دون أن تتركي رسالة تنبيء عن رحيلك، وكان من المحتمل أن أخبرك ولكن فضلت ألا أفعل ذلك."

كان باي قوي الاقناع في حديثه، ولكنها لم تتح له الفرصة لكي يتحكم فيها.

فقالت له:

"فعلت ما فعلت وليس هناك مبرر لأي مزيد للحديث عنه."

فقال بكبرياء:

"إذن.. هذا قرارك، إنك لا تريدين رؤيتي مرة أخرى. هل هذه اللحظات القلقة التي انتابتني الغضب فيها تمحو كل ذكريات الساعات السعيدة التي امضيناها سويا من قبل؟ هل هذا عدل؟ ألا تعني شيئا لك؟"

وكان عليها أن تجيب على تحديه فقالت له ببرود:

"أجل كانت تعني شيئا لي.. حتى فقدت معناها باكتشافي أنك تشعر بالاسف لي. وقد سبق أن قلت لك أنني

في غنى عن شفقة أحد٠"

"من هو ذلك الشخص ذو التفكير السديد الذي يشعر بالاسف نحو فتاة مثلك لها رأس اسد، وعقل طفل مدلل؟ فكثيرا ما تحاولين يا سابرينا إجراء اختبار تمتحنين به صبر الرجل٠ كم مرة يجب أن أؤكد لك إنني لا أشعر بالاسف نحوك، قبل أن تصدقيني؟"

فسألته متحدية:

"إذن فسر لي سبب رغبتك في رؤيتي٠"

أجاب باي بتجهم:

"هل يجب أن يتوفر دافع بالغ الخطورة حتى أطلب رؤيتك٠ الا يمكن أن يفسر هذا الدافع بانني٠٠٠"

وتمهل لحظة ليختار الكلمات التي يكمل بها عبارته٠٠٠ واستطرد يقول:

"معجب بك، أو بشجاعتك عندما تكونين عنيدة بتعقل٠ ولكن دعيني أوجه سؤالي على النحو التالي: لماذا ترحبين أنت بمصاحبتي خارجا؟ هل أنا وسيلة مريحة للانطلاق معك بعيدا عن المنزل؟ هل تصبرين علي لأنني أصحبك الى الأماكن التي ترغبين في ارتيادها؟ ما هو دافعك البالغ الخطورة يا سابرينا؟"

فأجابت وقد تراجعت أمام هجومه:

"أنا٠٠ أنا ليس لدي أي دافع٠"

فقال ساخرا:

"اهدئي٠ لا بد أن يكون لديك دافع٠ يجب أن يكون لديك سبب للخروج معي٠"

قالت سابرينا بإصرار ولكن الارتباك كان باديا في صوتها:

"لا٠٠ ليس لدي٠٠ أنا تمتعت بالخروج معك٠٠٠ ليس لدي٠٠٠"

فقاطعها باي:

"وأنا أيضا استمتعت بصحبتك٠"

وهنا قارعته بسؤال علها تستعيد الموقف لحسابها:

"كيف كان ذلك؟ أنا فتاة لها رأس اسد وعقل طفل مدلل٠ أنت قلتها بنفسك٠"

فأجاب عليها بمرح ساخر:

"هكذا؟ وأنا متكبر ومستبد٠ أنت قلتها لي بنفسك٠ أصبحنا متساويين٠"

وداعبت ابتسامة شفتيها، وأصبح موقفها ضعيفا

وشعرت بإصراره الحازم يتسلل تحت سخر جاذبيته، ومنطقه بالغ الإقناع، فقال لها متهما إياها:

"أنت تبتسمين يا سابرينا٠ أليس كذلك؟ لا تكلفي نفسك بالإجابة٠ أعلم أنك ستنكرين ذلك٠ لن أسألك إلغاء مواعيدك التي أعددتها لمساء السبت، ولكن في وسعك أن تصحبيني يوم الأحد في رحلة بحرية٠"

"رحلة بحرية؟!"

رددت كلماته بوهن٠٠٠ كانت تجادله حول مختلف أنواع الدعوات، إلا الرحلات البحرية٠ كانت سابرينا تعشقها وتقف عاجزة أمامها ولا ترفضها٠

كرر باي كلامه بصبر:

"أجل٠٠٠ رحلة بحرية٠"

"أنا٠٠"

ولم تستطع أن تنبس بكلمات الرفض٠

فقال باي:

"سأمر لعندك في وقت مبكر من صباح يوم الاحد٠٠٠ حوالي السابعة، سنمضي وقتا طيبا٠"

وتعثرت كلمات القبول على طرف لسانها وهي تنطلق من فمها لتقول:

"أنا٠٠٠ سأكون٠٠٠ مستعدة٠"

فأجاب باي مؤكدا:

"السابعة صباحا، يوم الأحد٠"

ووضع السماعة في مكانها، وكأن لسان حاله يقول إنه سيكون هو أيضا مستعدا لهذا اللقاء٠ ولم تحاول سابرينا أن تستبدل فكرة الرحلة بغيرها٠

حتى فكرة موافقة أبيها على الرحلة تمت في نفس اليوم الذي تحدث فيه مع باي٠ ففي المساء التقت بأبيها، وعندما أخبرته بفحوى دعوة باي لها، قال:

"أجل٠٠٠ اتصل بي باي بعد ظهر اليوم ليتأكد من عدم وجود أي أعتراض لدعوته لك، وأخبرته أنه ليس لدي أي مانع٠ وأعدك بأنني لن أقلق عليك، لأنك بين أيد أمينة، هذا بالإضافة الى أن باي سباح ماهر٠"

وجاء صباح الأحد٠٠٠ ووجدت سابرينا نفسها على متن يخته "فورشن ليدي"، وقد أخر الضباب والريح موعد مغادرته الميناء بنحو ساعة، وأخيرا شق عباب الماء، وداعبت نسمات

الهواء الوشاح الذي يحيط برأس سابرينا، وتناثر رذاذ الماء على شفتيها، وعندما عبر اليخت من تحت جسر غولدن غيت، أدار باي الدفة لتنطلق الى عرض البحر، وتجاوز كليف هاوس وسيل روكسي، واستمر في سعيه فيما وراء شواطيء المحيط، وكان التيار الجنوبي يحول دون استمتاعهما بحمام الشمس.
وكالعادة، تعلقت سابرينا بطوق النجاة الذي ثبت في وسطها، من قبيل الحيطة والحذر. وكان سطح اليخت يميل مع تلاطم مياه المحيط إلا أن باي كان يستعين بخبرته في استغلال كل هبة ريح في تسيير دفة يخته.
وتناهى الى مسامعها صوت الريح وهي تزأر في الفضاء، والأمواج وهي تتلاطم فوق اليخت الذي راح يزمجر وهو يشق عباب البحر. وبالكاد تبادلت كلمات خمس مع باي منذ مغادرتهما ميناء اليخوت، فقد بدا لها الحديث غير ضروري في هذا الهدوء الجميل الذي ساد تلك اللحظات، حيث أحس فيها كل منهما بالسعادة دون أن يفضي بها أحدهما للآخر.
ومضى بعض الوقت قبل أن تلاحظ سابرينا أن باي غير مسار اليخت، إذ أحست أن الشمس لم تعد في المكان الذي كان اليخت يسير صوبه، والتفتت الى باي وسألته:
"أين نحن يا باي؟"
فقال مبتسما:
"في مياه مونتيري باي بالقرب من سانتا كروز. هل تحلمين أحلام اليقظة؟"
وفي التو أخذت تتصور ملامحه القوية، الملوحة بأشعة الشمس والرياح، وشعره البني المبلل بالعطر وقد شعثه النسيم، وعينيه تحت وطأة ابتسامته التي أحست بها في نبرة صوته، وكان مثيرا لها أن صورته في خيالها واضحة مملوءة بالحيوية والرجولة.
وخفق قلبها في ضربات سريعة، فتمتمت قائلة:
"أحلام اليقظة أم أحلام البحر... لا أدري أيهما؟"
وأحست مرة ثانية بتغير اتجاه اليخت، فالريح لم تعد تمسك بتلابيب الشراع، وتباطأت سرعته، وسطحه بدأ يعتدل تحت قدميها فسألته:
"ماذا تفعل الآن؟"
"نقترب باليخت من الشاطيء. لقد تجاوزنا الجسور الطبيعية شـــــــال

سانتاكورز، ورأيت أن نلقي بمرسانا جنوب سانتاكروز لنتناول طعام الغداء. هناك خليج صغير هاديء أعرفه، أرجو ألا يكون أحد غيرنا قد اكتشفه بعد."
وألقى باي بالمرساة، ومدت سابرينا يد المساعدة ما أمكنها وكان حفيف الماء الهاديء الذي يتلاطم مع اليخت هو الصوت الوحيد الذي تسمعه، واستدارت لتتحدث الى باي. كانت تشعر بنظراته تحملق في وجهها، وسرى دفء لذيذ في أوصالها، وفجأة انتابها إحساس قوي بأنهما وحدهما في هذا المكان. رجل وامرأة، ولكنها سريعا ما كبحت جماح هذا التفكير الذي راودها، وقالت فجأة:
"سأهبط الى داخل اليخت لأعد الطعام، ماذا أحضرت؟"
أجاب باي:
"ساندوتشات وسلطات. كلها جاهزة. ما رأيك في السباحة قبل أن نتناول الطعام. الماء أدفأ هنا منه في الساحل، ولا توجد أية تيارات خطرة."
فهزت سابرينا كتفيها ترفض اقتراحه، قائلة:
"آسفة، لم تسألني أن أحضر لباس البحر، ولم أفكر أنا في إحضاره."
ورفض باي عذرها وقال:
"ليس هذا مهما، إنني أحتفظ بعدد من ثياب البحر في اليخت لمواجهة أي قرار مفاجيء من أحد ضيوفي للسباحة في البحر. وأني على يقين من أن أحدها سوف يناسبك."
"ولكن..."
ولم تتم عبارتها... فقد تذكرت أنها لم تطأ قدماها ماء البحر منذ الحادث. فسألها باي
"ولكن ماذا؟ يمكنك السباحة، أليس كذلك؟"
فابتلعت ريقها وقالت:
"أجل... أستطيع السباحة."
قال:
"سأحدد لك الاتجاه الصحيح للسباحة، حتى الى عرض البحر. اذهبي وبدلي ثيابك."
وأخبرها باي بمكان ثياب البحر، وهبطت سابرينا الى قاع اليخت، فقد رأت أنه من الأفضل لها أن تسبح، بدلا من البقاء مع باي على اليخت.
وكانت أغلب ثياب البحر من قطعتين، فاختارت سابرينا لباسا مناسبا من قطعة واحدة، وأحست أن هذا الثوب

أقل عريا عندما سارت به فوق سطح اليخت، وأرسلت شعرها الطويل فوق ظهرها، وتعاقدت خصلاته حول كتفيها، وحلت العقدة المعقودة فوق رأسها قبل أن تحررها مياه البحر.

قالت بعصبية:

"أنا مستعدة."

ولم يعقب باي على مظهرها، وقال:

"وضعت سلما من الحبال على جانب اليخت، وسوف أثب الى الماء قبلك."

وأمسك بيدها وقادها الى حيث ثبت السلم عند حافة اليخت. وعندما ترك يدها، شدت على راحتها تستعذب دفء راحته أطول فترة ممكنة. كان غباء منها أن تفعل ذلك. لم تكن رحلة عاطفية، وإنما رحلة صداقة. ولكن لا تعلم لماذا تثير هذه المشاعر الاضطراب في نفسها؟

اهتز سطح اليخت اهتزازة خفيفة، أعقبه صوت شيء ما ينزلق الى الماء، وعرفت سابرينا أن باي قفز الى البحر بعدها سمعته وهو يسبح في الماء، فاتجهت برأسها في اتجاه الصوت، وبعدعدة ضربات من ذراعيه اقترب من نهاية السلم ونادى عليها:

"اهبطي. الماء جميل."

وأمسك باي بالسلم، بينما راحت سابرينا تهبط درجاته، وتعلقت أصابعها بالحبال، وهي تتحسس حرارة الماء. فوجدتها فاترة، واصطكت أسنانها لعصبيتها، وسألها باي وهو يسبح بجوار السلم:

"هل أنت مستعدة؟"

فأجابت سابرينا وهي تكز فكيها حتى لا يسمع صوت أسنانها وهي تصطك:

"أعتقد ذلك."

ودفعت سابرينا يدها لتطلق قبضتها من فوق السلم، والتقطت نفسها عميقا قبل أن تهبط اليه، وفي باديء الأمر انتابها التوتر وعدم الاستقرار ولكنهما سرعان مازالا عندما اعتادت حرارة الماء، واستطاعت أن تسمع ضربات ذراعي باي وهو يسبح قريبا منها، فأخذت تستمد الثقة والقوة من وجوده الى جوارها.

ولاح لها أنها سبحت فترة طويلة، إذ بدأت تشعر بالاعياء وأحست بثقل في ذراعيها، فتوقفت عن مواصلة

السباحة لتلتقط أنفاسها، وسألته:

"كم بقي أمامنا؟"

فأجاب بانفاس قوية لايبدو عليها الإعياء:

"حوالي خمسة عشر قدما قبل أن نلمس القاع."

ولم تعقب سابرينا. وإنما واصلت السباحة مرة أخرى، بهدوء حتى لا تشعر بالاعياء، ولدهشتها اكتشفت أنها لم تقطع مسافة تذكر عندما لمست قدمها أرضا رملية، وسرعان ما انتصبت بقامتها، ومسحت الماء المملح الذي كسا وجهها، وثبتت شعرها الطويل وراء أذنيها، وتكلم باي من مكان يقع الى يسارها. قال:

"لقد نجحت في محاولتك.. كيف تشعرين الآن؟"

فابتسمت ابتسامة شاحبة وقالت:

"مجهدة، ولكنني بخير."

"دعينا نتوجه الى الشاطيء ونستمتع باستراحة."

واستراحت يدها على الماء، وتركت الأمواج تتدحرج فوقها وتستدل بها الى الشاطيء ومع هذا أمسك باي بيدها، وقادها الى الساحل.

وعندما وطأت قدماها الأرض الرملية المتماسكة، قال لها:

"هذا الساحل يمتاز بصخور تتيح للمرء الاستمتاع بحمام الشمس فوقها، بدلا من الاستلقاء على الرمال."

وبعد أن قطعا عدة ياردات ضغط على يدها لتقف. وقال لها:

"هنا، مكان مناسب."

وقبل أن تبدي سابرينا أية معارضة أمسكها من وسطها، ورفعها الى سطح صخرة صلبة ودافئة، وتعلقت تلقائيا بذراعيه المبللتين لتحتفظ بتوازنها. وبدأت تتسارع ضربات قلبها واحتاجت لعدة ثوان حتى يستعيد قلبها هدوءه، وتستقر نبضاته، وبعد لحظات اعتلى باي الصخرة ليجلس الى جوارها، وبعد أن اتخذ وضعا مريحا سألها:

"هل استمتعت بوقت طيب ليلة الأمس؟"

"ليلة أمس؟"

وتجهمت سابرينا، وأشاحت بوجهها عنه، وعندئذ تذكرت فقالت:

"أجل... أمسية طيبة."

وحقا كانت أمسية هادئة أمضيتها مع صديقتها سالي، تبادلتا فيها الحديث أحيانا، واستمتعا الى

بعض الاسطوانات الغنائية أحيانا أخرى.
سألها:
"أين ذهبت؟"
أدارت سابرينا وجهها للشمس لتجفف بشرتها المبللة ثم قالت له:
"مكثت أنا وسالي في البيت."
فقال بصوت ساخر:
"أمضيتما الليلة في ثرثرة نسائية. أليس كذلك؟"
كانت سابرينا حائرة بين أمرين: هل كان باي يسخر من أمسية السبت التي أمضتها هادئة بلا أحداث، أم أن سخريته كانت موجهة لها لأنها اختارت أمسية تختلف عن تلك الليلة المثيرة التي قضتها معه. ولما كانت تعرف باي حق المعرفة، فإن التعليل الأول كان أقرب الى الحقيقة. وأخيرا قالت:
"إن ثرثرة الرجال تعادل، إن لم تزد عن ثرثرة النساء."
ولم يدخل باي في جدال معها وإنما قال:
"أعتقد أن رأيك يعتبر صحيحا إذا تساوى العدد في كل من الجنسين."
وأعقب حديثهما صمت غريب. على الأقل كان غريبا بالنسبة لسابرينا. ومالت بجذعها الى الوراء لتستند على راحتها وقالت له:
"الشمس تبعث الدفء."
قال باي:
"أعتقد أنه من الأفضل أن أستلقي وأستمتع بها."
واستلقى بجسمه وهو يردد كلماته، وخيم سكون لم يكن يقطعه إلا اندفاع الأمواج الى الشاطىء، ولم يكن أمام سابرينا سوى متابعة اندفاعها.
وتحركت يداها حتى عثرت على نتوء مرتفع في الصخرة التي تقع وراءها وكأنها وسادة طبيعية، فاستلقت برأسها عليها، وظلت فترة طويلة تستمع الى صوت أنفاس باي، أما أنفاسها هي فكانت ضحلة لأن عضلات صدرها كانت متوترة. وأخيرا داعبتها حرارة الشمس فبعثت الاسترخاء في أوصالها.
ولم تخلد سابرينا الى النوم وإنما داعبت جفونها إغفاءة. وفجأة انتفضت كل حواسها، وطرفت جفونها عندما حاولت أن تحدد سبب اضطرابها، وأدارت وجهها بخفة في اتجاه باي، ولمس خدها يده بطريق الصدفة قبل أن تدرك أن باي

كان يمسك خصلة شعرها الحريري. فقال لها بصوت مرح:
"هل تعرفين أن هذه أول مرة أرى فيها شعرك مرسلا."
فقالت متلعثمة:
"أنا... أنا لا أحبه مرسلا، حتى لا يضايقني أثناء سيري."
وشاع الاضطراب في صوتها، عندما أدركت أنه دنا منها كثيرا، حيث كان باي مستلقيا على جبينه، ومرتكزا على أحد مرفقيه، ويبدو أنه لم يكترث كثيرا لتفسيرها، فاستطرد يقول:
"عندما تعقصين شعرك في شكل عقدة فوق رأسك، فان مظهرك يبدو أكثر توازنا، وخداعا للنظر... تكونين أشبه بملكة مهذبة. بينما يختلف شكلك عندما ترسلين شعرك، فإن منظرك يبدو أكثر أنوثة."
وراح النبض يضرب بشدة في صدغيها، وكان من الصعب عليها التدحرج بعيدا عنه، لأن حافة الصخرة كانت قريبة منها.
كان حلقها متوترا مشدودا، وبدا صوتها مضطربا وهي تقول:
"ألا تظن أن الوقت قد حان للعودة؟"
سألها ساخرا:
"ما الامر؟ ألا تحبين تعليقاتي على تسريحة شعرك؟"
ألقت سابرينا خصلة شعرها على كتفها العاري، وهزت رأسها وهي تقول بإصرار:
"لا يهم. سوف أعقصه عاليا حيث يسهل علي العناية به، بغض النظر عن أي تسريحة تفضلها."
وكانت عبارتها يشوبها التحدي السافر، ولكنها لم تعد تكترث. واقترب باي من ظهرها، وجذب شعرها بشدة، وقال:
"إذن من المحتمل أن تشعري بالاسف عندما تسمعين بأنني أفضل تلك العقدة الحريرية، أما شعرك المرسل فمكانه المناسب هو غرفة النوم."
وأطلقت سابرينا زفرة حارة، فلم تعد تحتمل هذا الغزل المفضوح ولذا شرعت تدفع نفسها الى الوراء لتتخذ وضعا لجلوسها يمكنها به التهرب من اقتراب جسمه منها، ولكن باي كان أسبق منها الى الوقوف على قدميه، وقال لها:
"سنعود سريعا."
وحاولت سابرينا الوقوف، ولكن باي كان أسرع منها

الى الوقوف على الرمل، ومد ذراعيه ليمسكا بخصرها ويهبط بها الى أسفل قبل أن تقطع بقدميها المسافة القصيرة بين الصخرة والشاطىء، وتملكها التوتر لعزوفها عن مساعدته، وعندما بذلت جهدها لكي لا تقترب بجسمها منه، تعثرت قدمها في حفرة كانت غائرة في الصخر، وكان ألم العثرة مبرحا دفعها الى أن تلقي بنفسها على صدره، وساعدها بقبضته الحازمة على أن تحفظ توازنها، وسألها:

"هل أنت بخير؟"

وقالت له بتأكيد حازم ولكن بصوت مضطرب بينما كانت ضربات قلبها متسارعة:

"أجل أنا بخير. لقد تعثرت بالصخرة."

ودفعت هبة مفاجئة من الريح خصلة رفيعة من شعرها لتستقر على وجهها وتعلقت على شفتيها المبللتين. وشرعت سابرينا في إبعادها، ولكن يدها كانت بعيدة عنها، فسحبتها أصابع باي برفق، ودفعتها الى ظهرها مع بقية خصلات شعرها الطويل. وظلت يده الى جوار وجهها، وراح أصبعه يدغدغ عظمة وجنتيها فتوقفت أنفاسها، واستكانت حركتها تحت سحر لمسته.

وفجأة جذبت جسمها من بين ذراعيه عندما حاول تقبيلها وسارت عدة خطوات سريعة بعيدا عنه ثم ادركت بأنها لا تعرف وجهتها، فعقدت ذراعيها بشدة حول نفسها، لتقاوم القشعريرة التي سرت في جسدها.

وسار باي الى جوارها، واستطاعت أن تشعر بعينيه تتركزان عليها فأرخت أهدابها حتى لا تعكس نظراتها مشاعرها الدفينة التي تجوب خيالها وفي لحظة خاطفة أحست أنها تجرؤ على التنفس.

قال لها:

"خير لنا أن نعود الى اليخت."

كانت لهجته تنم عن غضب مكبوت. ولم تستطع سابرينا أن تدرك هل كان الغضب موجها لنفسه أم لها؟

وكانت يده باردة عندما أمسكت بيدها وهو يقودها الى البحر، وشعرت سابرينا بالسعادة عندما غاصت في الماء، وأطلق سراح يدها لتبدأ السباحة، ولم تكن تتصور أنه من الممكن أن تكون لمسة اليد التي اعتادت على أن تشيع اللهيب في أوصالها، هي نفس اللمسة التي تثير القشعريرة

في عظامها.

كانت تؤنب نفسها أثناء السباحة في مراجعة العودة لحماقتها التي سمحت لباي بأن يحملها الى هذه الرحلة بينما كانت الحكمة تدعوها الى أن تكف عن رؤيته.

وكانت سابرينا منهكة عندما لحق بها باي، وجذبها الى السلم فارتقت درجاته دون معونته، وتمهلت على سطح اليخت قليلا حتى تلتقط أنفاسها.

ثم اتجهت الى قاع اليخت فقال لها بلهجة آمرة:

"عندما تفرغين من ارتداء ثيابك، سيكون طعام الغداء معدا لك. أظن أنك ستعثرين على طلبك، وفي نفس الوقت سيكون اليخت على أهبة الاستعداد للرحيل."

وتلعثمت وهي تقول:

"لا أظن... لا أظن أنك ستتناول طعامك قبلي؟"

"أعتقد أننا في عجلة الى العودة... أليس كذلك؟"

وكانت تشوب صوته نبرة التحدي... التي حاولت أن تستنكرها ولما لم تسرع في الجواب على سؤاله، أضاف قائلا بتجهم:

"سوف أستمتع في الطعام... كما استمتعت به ذات مرة ونحن نتناوله في رحلتنا البحرية."

وفي الحقيقة، أحست سابرينا أن الطعام لا مذاق له، وكان معظمه يتوقف ليلتصق في حلقها، وكانت تبتلعه بصعوبة بالغة. ولم تشعر بأي جو للصداقة يحيط برحلة العودة، وإنما كان التوتر يخيم على الصمت الذي ران عليهما.

وفي خاتمة اليوم شعرت سابرينا بالبرود يشوب قبول باي لكلمات الشكر المهذبة التي قدمتها له، وعندما أوصدت الباب الحديدي وراءها أدركت تماما سبب تعاستها وكان لديها وقت كاف في طريق العودة لكي تمعن النظر في السبب، وعرفت أنها أحبت باي كاميرون.. وأدركت أنها كانت حمقاء... لا تبصر!

٩ - تمثال نصفي

كانت كلمة الوداع التي ألقاها باي هي: سأتصل بك هاتفيا ومن واقع تجربة سابرينا كانت هذه الكلمات تعني نهاية علاقة. وها قد حل يوم الجمعة ولم يتصل بها.

وانحدرت دمعة فوق خدها، ومسحتها بأطراف أناملها التي تركت وراءها خطا من الصلصال الأسود على وجهها. لماذا لا تنضب ماقيها من الدموع كما فقدت بصرها؟ وعجبت في يأس، ثم تنهدت. ربما توجد هناك طريقة أخرى للتخلص من هذا الالم.

وتناهى الى سمعها صوت طرقة على باب الاستوديو، وكانت قد احتفظت به موصدا خلال هذا الاسبوع، لأنها لا تريد أن يتلصص عليها أحد دون دون إذن منها، أو حتى يدير مقبض الباب. واعتذرت لأبيها بأنها تريد أن تحول دون أية منغصات تلهيها عن عملها. وكانت تجد نفسها تقف في وسط الغرفة وتنخرط في البكاء وكانت لا ترغب في رؤية أبيها ولا أي شخص آخر.

وتناولت سابرينا طرف قميصها لتجفف وجهها بعناية من الدموع خشية أن تكون تركت وراءها دمعة على خدها لم تمسحها، وأخيرا نادت على الطارق قائلة: ادخل.

وعبقت الغرفة برائحة نفاذة من العطر، الذي اعتادت ديبورا أن تستخدمه وأكدت الخطوات الرقيقة وجودها. قالت لها خطيبة أبيها:

"جئت لأذكرك بأننا سنرحل خلال ساعة. أمامك فسحة

من الوقت لتنظيف نفسك، وتغيير ملابسك."

تمتمت سابرينا، وهي تركز اهتمامها على التمثال النصفي الذي لم يكتمل بعد:

"لا أظن أنني سأذهب معكم."

ولكن ديبورا ذكرتها قائلة:

"غرانت يترقب بحرارة أن نتناول نحن الثلاثة طعام العشاء خارج المنزل اليوم."

قالت كاذبة:

"أنا أعلم ذلك ولكنني أفضل أن أواصل العمل فترة أخرى، لأنني قطعت نصف الشوط في هذه القطعة الفنية، وأرغب في أن أستمر في عملي والفكرة مازالت حية في عقلي."

ألقت ديبورا عليها سؤالا يشوبه الاضطراب:

"هل أنت متأكدة؟"

فقالت سابرينا مؤكدة:

"لقد أمسكت بالشكل، ولا أود أن أفقد معالمه."

قالت ديبورا بتردد:

"لا أعني العمل."

سألت سابرينا:

"إذن ماذا تعنين؟"

وتوقفت يد سابرينا عند أذن التمثال الذي كان في منتصف مرحلة التشكيل وتساءلت: هل مازالت ديبورا تمتلك نفاذ البصيرة!

قالت ذات الشعر الأحمر بوعي:

"أنا... أنا أردت التأكد من أنني لست السبب في رفضك للخروج معنا. لا أريد أن تظني بأنك سوف تصبحين الطرف الزائد في رفقتنا هذه الليلة."

وأطلقت سابرينا زفرة ارتياح خفيفة، وقالت:

"كلا... يا ديبورا إن رفضي الخروج ليس بسببك. سنذهب سويا في يوم آخر. كان من الافضل لي ألا أبدأ عملي هكذا متأخرة، ولكن ما دمت بدأت فيه، فلا بد أن أواصل العمل فترة أطول حتى أنجز جانبا كبيرا منه."

"أدرك قصدك. أنا أعرف كم هو مهم هذا العمل بالنسبة اليك. فلا تقلقي يا سابرينا. سأشرح الأمر لغرانت:"

"ما الذي تودين شرحه؟"

وفجأة صاحت ديبورا بصوت مضطرب وقالت:

"غرانت؟ ماكان يجدر بك أن تتسلل الى هنا بهذه الصورة!"
قال:
"لم أتسلل، ولكنك ببساطة لم تسمعيني."
ثم استطرد يقول:
"والآن... أسأل ماذا كنت تودين شرحه لي؟"
وأخذت سابرينا تجيب نيابة عن ديبورا:
"قررت أن أمكث هنا لأواصل العمل الليلة، ولا أستطيع الخروج معكما لتناول طعام العشاء."
قال أبوها متجهما:
"نحن الاثنان سوف نخرج لتناول العشاء معك، وليس العكس."
فهزت كتفيها باستخفاف، وصممت على ألا تدعه يغير من رأيها، فقالت:
"إذن سوف نخرج في ليلة أخرى."
"كلا... سوف نخرج هذه الليلة."
وتدخلت ديبورا في الحديث تسأله أن يكف عن الإصرار:
"غرانت!"
قال بحزم:
"لقد عملت سابرينا كثيرا يا ديبورا. انظري الى الهالات السوداء التي تحيط بعينيها والتجاويف في وجنتيها، أنها لم تخلد الى النوم، ولم تأكل وكل ما تفعله هو العمل من الصباح حتى غروب الشمس. وبالاحرى حتى منتصف الليل."
وتنهدت سابرينا وقالت:
"إنك تبالغ يا أبي، زد على ذلك أن العمل أصبح شيئا هاما بالنسبة الي."
وكانت سابرينا صادقة، فإن العمل كان الشيء الوحيد الذي يحميها من الجنون، وبدونه تكون الحياة فراغا مميتا، وبدون باي تكون الحياة قاتلة.
واستطردت تقول:
"أعدك بأنني حالما أفرغ من هذه القطعة الفنية سأعد لنفسي شيئا ألتهمه ثم آوي الى فراشي ما رأيك؟"
فتمتمت ديبورا قائلة:
"اظن أن المساومة عادلة، أليس كذلك يا غرانت؟"
"انا..."
ولم يتم عبارته وأخذ نفسا عميقا، غاضبا، لأن المناقشة

مع سيدتين يحبهما أجمل حب، أصبحت لا تجدي. وتنهد مرة أخرى بشدة، وأردف يقول في أستسلام:
"حسنا. يمكنك المكوث في البيت هذه المرة. ولكن سوف نخرج سويا في الأسبوع القادم ولن يكون هناك سبب للاعتذار. والآن لماذا لا تدعينني ألقي نظرة على عملك الفني الهام الذي يمنعك من الخروج؟"
وخطت سابرينا جانبا عندما دنا غرانت منها، وقالت
"لقد شكلته الآن فقط. إنني أشكل تمثالا نصفيا لجينو مارشيني في شبابه فقد أراني منذ عام صورة التقطت له في يوم زفافه. وكنت أنوي أن أرسمه على لوحة.. ولكنني."
وصمتت، وكأن صمتها يقول أنها تركت اللوحة لأسباب واضحة واستطردت تقول:
"إن شكله روماني، فيه كبرياء وقوة."
قال غرانت لين غير مصدق:
"جينو... صاحب الصيدلية؟"
قالت سابرينا مدافعة:
"التمثال في مراحله الأولية."
وخيمت لحظة صمت بينما راح غرانت يدرس رأس التمثال النصفي، ثم التفت فجأة وقال:
"ديبورا... هذا التمثال يشبه من... في رأيك؟"
قالت في تردد:
"حسنا.. إنني لا أعرف جينو جيدا."
قال غرانت بإصرار:
"أما أنا فأعرفه منذ سنوات عديدة. إني آسف أن أقول لك يا سابرينا إن هذا التمثال لا يشبه جينو البتة، ولا حتى في شبابه."
وعندما بدأت سابرينا تقول:
"عندما أفرغ منه..."
التقط غرانت عبارتها ليكملها قائلا:
"سيشبه باي كاميرون تماما."
"انت مخطيء يا أبي."
قالتها برصانة، وهي تطبق قبضة يديها بشدة حتى شعرت بألم حاد فيها، وكأنها تنزل العقاب بهما، لأنها لم تتوقع الخيانة منهما. ثم أردفت تقول:

"أنه لا يشبه باي كاميرون البتة. أليس كذلك يا ديبورا؟"
قالت المرأة الأخرى:
"أنه يحمل أدنى شبه به، إن التمثال لم ينته كما تقولين."
وضع غرانت ذراعه حول كتفي سابرينا، واحتضنها ليبعث الطمأنينة في نفسها.
ثم قال:
"إن الرجل له وجه مثير. إذا استطعت رؤيته يا سابرينا، فإنك سوف تجدين دافعا الى رسمه على لوحة من القماش. ومع ذلك فإنني لن أواصل الجدل معك، فأنت الفنانة ولست أنا. إذا قلت إنه جينو... فهو جينو أعتقد أنه توجد ملامح رومانية عند كل منهما. هل تسمح لي السيدتان بالانصراف لأغتسل وأبدل ثيابي."
وطبع غرانت قبلة على وجنة سابرينا، ثم غادر الغرفة، وبعد رحيله راحت سابرينا تتأمل بلا إبصار قطعة الصلصال المشكلة فوق المنضدة، وبينما راح قلبها يصرخ بالألم، وفي غمرة تألمها نسيت وجود ديبورا معها حتى أيقظتها من تأملها بقرقعة من كعبي حذائها.
قالت ديبورا بصوت رقيق:
"سابرينا... فيما يتعلق بباي..."
ثم توقفت عن مواصلة الحديث، فقالت سابرينا بتحد، وفي نبرة باردة آتية من بعيد:
"ماذا عن باي؟"
"لا أظنك قد تعلقت به تعلقا كبيرا، هل حدث ذلك؟"
تلعثمت ديبورا وكأنها تطأ بأقدامها أرضا محرمة، ثم واصلت الحديث:
"أعني... أنك معجبة به كثيرا، ولكنني لا أظن أنه سوف.."
فاتمت سابرينا العبارة لها:
"تجذبين أنظاره اليك بحرارة. أنا أدرك تماما أنه يشعر بالحنان نحوي."
ولم تستطع سابرينا أن تحمل نفسها على أن تتفوه بكلمة الشفقة بدلا من الحنان.
تنهدت ديبورا في ارتياح وقالت:
"أنا سعيدة أنا متأكدة أنه يميل اليك يا سابرينا. ولكن لا أظن أنه من الحكمة أن تكوني مولعة به ولعا شديدا... وفي نفس الوقت ليس من العدل أن تكوني نفضت يدك منه."

"أنا مولعة به. لقد ساعدني كثيرا. باي هو الشخص الذي اقترح علي أن أشغل نفسي بالنحت."
وصرخت سابرينا لنفسها في صمت بأنه ليس من العدل أن تحطم قلبها من أجل مستقبلها، ولكن متى تحتكم الأمور الى العقل إذا ارتبطت بالحب؟
واستطردت تقول:
"لا تقلقي يا ديبورا. لم أسيء تفسير دوافعه."
فقالت ديبورا:
"أنت تعرفين جيدا موطيء قدميك على الأرض."
وفكرت سابرينا وقالت لنفسها: الآن فقط أعرف أن رأسي يسبح في الفضاء وعندما قالت ديبورا بأنها سوف تدعها لعملها تمتمت بإجابة شاردة. وعندما أغلقت خطيبة غرانت باب الاستوديو وراءها راحت سابرينا تبحث بعينيها عن موضع التمثال النصفي، وأخذت تستكشف بخفة الملامح غير المصقولة للوجه، الذي أكد لها أنها ملامح وجه باي، وانتابها غضب بارد سرى في أطراف جسمها. وسمعت عقلها يصدر لها أمره قائلا:
"حطميه... دمريه... حوليه الى كومة من الصلصال."
واستراحت يداها على جانبي الوجه، ولكنها لم تستطع تنفيذ الأمر وسقطت دمعة.. ثم دمعة أخرى، وأخيرا أجهشت بالبكاء، فاهتز قوامها النحيل، وتحدب كتفاها، وتقوس ظهرها من شدة الألم في صدرها.
ومع هذا لم تمكث يداها طويلا بلا حراك، وإنما شرعتا في العمل وبدافع من الألم راحت تحدد على الصلصال كل لمحة من ملامح وجهه وكل قطعة من قلبها لم تهبها لباي.. ذهبت خالصة الى الصلصال الناعم.
ولم تشعر سابرينا كم من الوقت مضى عليها، عندما سمعت أباها يطرق الباب، ثم يفتحه، ولم يكن لديها فسحة من الوقت لكي تمسح نهر الدموع الذي غطى وجهها، لذا أدارت ظهرها للباب عندما قال لها أبوها:
"سنرحل الآن يا سابرينا، ولا تنسي وعدك. تناولي طعامك، ثم توجهي الى فراشك بعد ذلك."
قالت بحزم:
"أجل يا أبي. استمتع بوقتك."
وكان دخول أبيها سببا في كبح جماح دموعها

المنهمرة، وعرفت مقدار ما حرمته... عاطفيا، وجسديا.
وعندما أغلق الباب الأمامي أدركت أن أباها وديبورا قد رحلا عن المنزل وسارعت الى القاء جسدها على المقعد، ودفنت وجهها في راحتها، دون حراك، لا تبغي حتى استهلاك طاقتها في التنفس.
وسمعت دقات تدوي.. وخيل لها لأول وهلة أنها تخيلات ولكنها أدركت أنها آتية من الباب، فكست وجهها تقطيبة وهي تجفف وجنتيها من الدموع، وانزلقت من فوق المقعد وهي تدمدم قائلة:
"لا بد أن أبي قد نسي مفتاحه."
ولم تطاوعها ساقاها على حملها بسرعة عبر الاستوديو، أو تهبطا بها درجات السلم المؤدي الى الطابق الأرضي، واستمر الطرق على الباب بصورة ملحة أكثر من الأول. قالت سابرينا بصوت يشبه الانفعال:
"أنا قادمة."
توقف الطرق، ولكن عضلات ظهرها كانت قد تقلصت من شدة التوتر، فراحت تدعكها بضجر، وهي تدير القفل الأوتوماتيكي وتفتح الباب.
ثم قالت بصوت يبدو فيه الخفة والمداهنة:
"ما الأمر؟ هل نسيت مفتاحك؟"
ولكن سوءالها قوبل بالصمت، فمالت سابرينا برأسها جانبا تصيخ السمع وقالت:
"أبي؟"
"هل تعرفين أنه يوجد آثار من الصلصال على خدك؟"
تراجعت سابرينا مأخوذة عند سماع صوت باي، وتحركت يدها لتغلق الباب، ولكنه اعترضه بقدمه، وخطا الى داخل الغرفة. وسألته بغضب:
"كيف أتيت الى هنا ماذا تريد؟"
قال موضحا بهدوء:
"قابلت والدك وديبورا في طريقهما خارجا، وسمحا لي بالدخول."
أشاحت بوجهها عنه وهي تمسح الصلصال عن وجنتيها ثم سألته:
"لماذا؟"
قال باي:

"تسألين لماذا دعاني أبوك الى الدخول؟ ذكر عن إقبالك على العمل بجد واهتمام."
قالت بإصرار:
"حسنا. أنا لا أعمل بجد واهتمام. وكل ما أعنيه لماذا أتيت الى هنا؟"
"لأسألك أن تتناولي طعام العشاء معي."
دفعت سابرينا رأسها الى الوراء، وأرخت أهدابها في صلاة صامتة لعله يدعها لشأنها، وقالت له:
"أرفض قبول دعواتك."
قال:
"لن أقبل رفض دعوتي. يجب أن تأكلي. هل يستوي الأمر عندك أذا أكلت معي أو أكلت وحدك؟"
"بل يجب أن تقبله، لأنني مشغولة. ولن يضير بي كثيرا أن تناولت الطعام وحدي."
وكانت سابرينا تعرف أنها اعتادت أن تتناول الطعام وحدها. وقال باي بهدوء:
"سابرينا.. كفاك عنادا. لا حاجة بك الى تغيير ملابسك. اخلعي قميص العمل واخرجي كما أنت. سنأكل، ثم نعود مباشرة للانتهاء من عملك إذا كان ضروريا الانتهاء منه الليلة."
أنذرته قائلة:
"لست أنوي الاستماع الى موضوع الخروج."
وبخطوة سريعة، اقترب باي منها، وحل حزام القميص الخارجي، وأسرعت هي بدورها الى ربطه ثانية، ولكن أصابعه أطبقت على رسغها، ليمنعها من ذلك وحاولت سابرينا أن تطلق رسغها من قبضته وهي تدمدم:
"لن تستبد بي هذه المرة يا باي كاميرون."
أمسك رسغها برفق وهو يقول:
"ستمضي الليلة بطولها في الجدال، لأنني لن أرحل من هنا قبل الحصول على موافقتك."
لم يكن تهديده هزيلا، كانت كبرياؤه هي السلاح الأول الذي يدفعه الى تنفيذ تهديده وتمثل السلاح الثاني في النار التي سرت في ذراعها. وهو ما لا تستطيع أن تخفي إزاءه مشاعرها، أو تمسك لسانها، إذا هي حاولت أن تستمر في العناد طويلا.

وأطبقت سابرينا فمها بشدة لبرهة ثم قالت:
"إذا وافقت على تهديدك هذه المرة، هل تقسم بشرفك أنك من الآن فصاعدا سوف ترضخ للقرارات التي أتخذها بشأن الخروج معك؟"

وقوبل رجاؤها بصمت يشوبه التحفظ، ثم قال:
"سأقسم بشرفي... فقط إذا... إذا... وافقت على أن نناقش سبب عدائك المفاجيء؟"

قالت ببرود:
"لا أعرف ما الأمر الذي تتحدث عنه."

وأخذ قلبها يدق بجنون. وتجاهل باي إنكارها وقال:
"اقسمي بشرفك يا سابرينا."

وأطلقت تنهيدة، كانت تخفي نشيجا مغلولا وخفيا، ثم قالت:
"حسن. أقسم بشرفي. والآن اترك رسغي."

وأطلق سراح رسغها، ودعكت المنطقة الرقيقة بلا وعي منها، ثم قالت كاذبة:
"ولكني مازلت لا أعرف ما الأمر الذي تتحدث عنه."

وتغيرت نظرتها اليه، ولكنها حرصت على الا يكتشف السبب، لأنه إذا كانت الشفقة من أجل فقد بصرها أمرا يمكن احتماله، أما الشفقة لأنها أحبته فهذا أمر آخر ترفض السكوت عليه.

تمتم باي بهدوء:
"سوف نرى."

كم كرهت ثقته المفرطة بنفسه، وقذفت سابرينا قميصها ليستقر فوق المقعد وتوجهت الى حامل المظلات لتتناول عصاها... العصا العاجية التي قدمها لها باي. وأعلنت قائلة:
"دعنا نذهب."

سألها ساخرا:
"ألم تنسي حقيبة يدك؟ ربما تحتاجين الى مفتاحك.. للعودة ما لم تخططي لقضاء الليلة معي."

بصقت سابرنا وقالت:
"تبا لتفكيرك."

ولكن الفكرة كانت تعذيبا أليما نفذ الى قلبها وهي تهرع لترتقي الدرجات الى غرفتها، وقد آلمها أن باي استطاع أن يتفكه من حبه لها، وخاصة عندما أصبح شيئا ترغب

فيه بشدة.

وهبطت درجات السلم وهي تحمل حقيبة يدها، واحتكت به وهي تعبر الباب، متجاهلة سخريته، وهو يقول لها:
"هل أنت مستعدة الآن؟"

والتزمت الصمت طوال ركوبها معه السيارة من أجل سلامتها، وليس رغبة منها في أن تكون وقحة معه. ولم تستطع أن تتكهن أسباب صمته. كانت تراه لغزا فهي لا تفهم لماذا يبغي صحبتها عندما تظهر له بوضوح أنها لا ترغب في رفقته.

أدركت سابرينا أنه من المحتمل أن تكون هذه المرة هي الأخيرة التي تصحبه فيها، إذا حافظ على وعده. وكان من المستحيل أن تخرج معه بعد أن عرفت حقيقة مشاعره، لأن ذلك سيفجر مزيدا من الألم.

كانت تعرف أنه يأمل في تغيير عقلها، وإقناعها بالاستمرار في علاقتها ونجح في المرة الأخيرة عندما كانت لا تدرك مقدار حبها. ومن الطبيعي أن يكون واثقا أنه يستطيع أن يكرر المحاولة... لماذا؟ إنها لا تعرف يجب أن تدافع عن نفسها ضد سحره وجاذبيته، بألا تطيل المكوث معه بعد أن افترقا.

وتركزت أفكارها على الرجل الذي يجلس وراء عجلة القيادة وحجبت أي شيء آخر، ولم تسمع صوت حركة المرور في غدوها أو رواحها عبر شارع سان فرانسيسكو كأن هذا لا يعنيها. ولم تكترث كثيرا بالتفكير في المكان الذي يصحبها اليه ولو أنها بعد لحظات سوف تعرف المطعم حين ندخل اليه، والالم يعتصر قلبها.

"سابرينا."

ناداها باي في لهجة آمرة جذبت انتباهها من قوقعة التعاسة التي تكمن فيها فانتصبت بقامتها، وأدركت أن السيارة قد توقفت وكست وجنتيها حمرة وردية ولكنها كانت تعلم أن الظلام الذي يسود السيارة كفيل بإخفاء احمرار خديها. ورفعت رأسها في استعلاء وسألت:
"هل وصلنا."

فأجاب باي:
"أجل."

وأطبقت أصابعها بشدة حول مقبض عصاها، وانتظرت

حتى يدور باي حول السيارة ليفتح الباب المجاور لها، وتركت رؤوس الثعبان المنقوشة على المقبض العاجي آثارها على أصابعها ولانها كانت تجهل وجهتها، فإنها قبلت أن تترك يده ترتاح على مرفقها ليقودها. وبعد أن خطت عدة خطوات فتح باي بابا ودفع بها الى داخل مبنى. ثم سارا قليلا حتى اقتربا من سيدة حيتهما في دهشة مرحة وقالت:

"لقد أتيتما مبكرين. دعني أتناول معطفك."

وناولها باي معطفه الخفيف ثم قال:

"أجل لم تأخذ مني وقتا طويلا كما ظننت يا سيدة غينز. أقدم لك سابرينا يا سيدة غينز. وأنت يا سابرينا أقدم لك سيدة غينز."

وحيت سابرينا المرأة قائلة:

"كيف حالك يا سيدة غينز؟"

ثم راحت تصغي علها تلتقط الأصوات المألوف سماعها في أي مطعم عام، ولكن صوت السيدة غينز جاءها يقول:

"أنا سعيدة بلقائك يا آنسة لين."

وعندما تراجعت السيدة غينز بضع خطوات، التفتت سابرينا الى باي لتسأله:

"أي نوع من المطاعم نحن فيه؟"

ووضع يده مرة ثانية على مرفقها ليدفعها الى الامام وهو يقول:

"إنه ليس بمطعم."

وتجهمت سابرينا وقالت:

"ولكن..."

وقاطعها باي قائلا:

"هذا منزلي يا سابرينا."

وتوقفت فجأة وقالت متهمة إياه:

"قلت لي أنك ستصحبني خارجا لنتناول الطعام."

"ولكنني لم أقل لك إنني سوف أصحبك الى المطعم."

وترك مرفقها، وأحاط بذراعه خصرها من الخلف، وهو يدفعها الى الامام.

واستطرد يقول:

"وأنت لم تسأليني البتة."

وخلصت سابرينا خصرها من ذراعه، وقالت بصوت يضطرب بالعاطفة:

"خدعتني هذه المرة أيضا يا باي كاميرون. عد بي الى البيت حالا."

قال:

"أعطيت السيدة غينز لائحة بالاطعمة المفضلة لديك، وبذلك مجهودا كبيرا، لإعداد وجبة تحبينها، وسوف تصاب بخيبة أمل إذا رحلت ولم تتناولي شيئا من صنع يديها."

وذكرته بحدة قائلة:

"أنت لا تهتم كثيرا بمشاعري، فلماذا أشعر بقلق لإيذائها؟"

فقال بصوت منخفض ناعم:

"لأنك أساسا امرأة رقيقة وحساسة، ولأنك أعطيتني كلمتك."

وابتلعت سابرينا حشرجة يائسة من الاحباط وهي تقول:

"من واجبي أن أحترم كلمتي، في الوقت الذي لا تحافظ فيه على كلمتك؟"

"أنا لم أكذب عليك."

قالت بتهكم:

"لم تكذب، ولكنك خدعتني فقط. قدتني بسيطرتك حتى أفعل ما تريد وقبل هذا وبعده أنت باي كاميرون... إنك تضع دستور مبادئك وفق هواك اليس كذلك؟"

قال بصوت يشوبه خيط رفيع من الصرامة الباردة:

"هل نتوجه الى غرفة الجلوس؟"

وشعرت أنها تخدع نفسها بالرضا عندما تحاول إيلامه، وهي في الحقيقة تحبه بجنون، ولكنها في نفس الوقت تكرهه أيضا، لأنه ينظر اليها كفتاة عمياء سيئة الحظ، وليس كامرأة لها مطالبها العاطفية.

ولم تعارض سابرينا الذراع التي كانت تقودها بحزم، واستدار يمينا، وعندما تباطأت قدماه سألته ببرود وفي تحد سافر:

"لماذا أتيت بي الى هنا يا باي؟"

فأجاب وهو يتعمد عدم فهم سؤالها:

"لأنك لا تستطيعين تمضية الامسية في البهو."

فقالت متهمة إياه:

"أنت تعرف جيدا، أنني أشير الى منزلك!"

"لأنه يتيح لنا الخلوة التي نتبادل فيها الحديث بحرية."

قالت سابرينا تذكره:

"يمكن الحصول على هذه الحرية في سيارتك، أو في منزلي."

قال لها بأسلوب منطقي:
"لن يتاح لنا ذلك. ففي السيارة ستفقدين أعصابك، ومن المحتمل أن يراودك التفكير في الوثوب من الباب قبل أن أستطيع أن أمنعك من القفز، وقد تصرعك سيارة عابرة. أما في بيتك.. فإنه لن يتيح لنا هذه الخلوة، فأنت تعرفين نفسك تمام المعرفة. أنت إنسانة عنيدة... ربما تركتني أتحدث الى باب الغرفة التي سجنت فيها نفسك. أما في بيتي فأنت لا تعرفين أي طريق يمكنك السير فيه دون أن تتعثر قدماك بقطعة من الاثاث أو الارتطام بجدار. فقالت سابرينا معارضة:
"بعد كل هذا تسألني لماذا بدأت أكرهك فجأة؟"
وحاولت أن تعود من حيث أتت ولكنها شعرت أنها عاجزة عن الحركة السريعة، حيث نجح باي في إقامة شرك لها، وحاولت بطرف عصاها أن تبحث عن أية عقبة تعترض طريقها، وارتطمت العصا بجسم صلب. قال لها باي:
"أمامك مباشرة أريكة، والى يمينك مقعد، تراجعي خطوة الى الوراء ثم دوري يمينا حتى تتجنبي وجود المقعد."
فسألته:
"وماذا يوجد في الطريق بعد ذلك؟"
قال لها:
"لماذا لا تكتشفين الموقع بنفسك؟"
ونفذت سابرينا تعليماته ببطء، وهي تحسب المسافات التي تقع بين قطع الاثاث حتى تخترق المساحة الخالية بمساعدة عصاها. وأخيرا لمس طرف العصا مايبدو أن يكون ساق المنضدة، فخطت بعيدا عنها في حرص شديد لتكتشف أن المنضدة تقع بجوار الحائط، أو على الأقل بجوار جسم صلب. ربما كان أحد الأبواب، فمدت سابرينا يدها تكتشف حقيقته، ولمست أصابعها ستائر رقيقة.
جاءها صوت باي من منتصف الغرفة قائلا:
"إن النافذة تطل على خليج سان فرانسيسكو، أمامك منظر غولدن غيت والميناء."
ولم تعرف سابرينا ماذا كانت تأمل في اكتشافه، هل كانت تبحث عن منفذ للهروب؟ محتمل! وشعرت بالإحباط عندما تركت النافذة، وعادت تقتفي خطواتها السابقة وتوقفت عندما بلغت الموقع الذي شعرت أن باي واقف فيه. وقالت له:

"باي... أرجوك... عد بي الى المنزل."
"لم يحن الوقت بعد."
كانت السجادة ناعمة وغزيرة تحت قدميها. كانت تحدوها الرغبة في اكتشاف المكان الذي يعيش فيه وينام بين جدرانه.
وهزت رأسها بشدة، كان عليها الا تفكر في ذلك. وأخيرا رفعت سابرينا ذقنها في تحد:
"إذا لم تعد بي الى البيت، فانني سوف أستدعي سيارة أجرة."
سألها ساخرا:
"أين الهاتف يا سابرينا؟ هل تعرفين مكانه؟"
وأشاحت بوجهها عنه، وأطلقت تنهيدة محمومة من صدرها، فقال لها:
"ماذا يضايقك يا سابرينا؟"
صاحت بغضب:
"بعد أن وضعتني رهينة في بيتك، هل لديك الشجاعة لكي تسألني عن سبب ضيقي؟"
"هناك سبب لضيقك أكبر مما هو واضح، وأنا أريد اكتشافه."
وكان صوته يقترب منها وهو يتحرك نحوها، فاستدارت سابرينا لمواجهته وهي تحاول أن تستخدم حاستها لتحدد مقابلته. وقالت له ببرود:
"ربما يكون السبب هو أنني ضقت ذرعا من أن أعامل معاملة طفلة."
فأجابها باي:
"إذن توقفي عن تمثيل دور الطفلة."
واكتشفت أنه أصبح قريبا منها أكثر مما كانت تتوقع، فقد لمست يداه كتفيها ولكن قبل أن تنغرس أصابعه في جسمها ابتعدت عنه بسرعة.
سألها قائلا:
"بحق السماء، لماذا أنت خائفة مني؟ في كل مرة أقترب فيها منك ترتجفين خوفا مثل أرنب مذعور، لقد أصبحت على هذه الحالة من الذعر منذ حفل باميلا."
كانت أنفاسها ضحلة وغير مستقرة. وقالت له:
"لم يلهمني اقترابك مني... الثقة بك."
وتراجعت سابرينا، وهي تشعر أنها عاجزة عن أن

تقول له.. إنها تحبه. قال باي بانفعال:
"كنت غاضبا منك ولم أقصد إخافتك."

وفي هذه المرة ارتاحت يداه فوق كتفيها قبل أن تحاول إبعادهما. وكانت لمسته حازمة وليست مؤلمة.

قالت:
"ألا ترى أن الوقت قد تأخر كثيرا لاعتذارك... الذي تقدمه الآن فقط؟"

وخفضت ذقنها حتى لا يرى صورة السخرية على وجهها، وقالت:
"لا نستطيع أن نبقى أصدقاء بعد ذلك يا باي."

فأجاب إجابة مقتضبة:
"إذن سوف أصلح ما شاب علاقتنا."

ناداها في همس، وكان صوته تشوبه دغدغة رقيقة، كانت أشبه بالضربة. وقفز قلبها حتى أمسك بتلابيب حلقها، ولكنها أجبرت الكلمات على الانطلاق من حنجرتها. سألته بصوت مشدود:
"والآن... هل تدعني أرحل؟"

سألها بحذر:
"ما الأمر يا سابرينا؟ ما هو سبب عدم رغبتك في رؤيتي."

وقفت سابرينا صامتة زهاء دقيقة، وهي تعرف أنه لن يطلق سراحها في الحال، فالتقطت نفسا عميقا ودفعت برأسها الى الوراء إذ كانت على وشك أن تصنع بيديها أكبر خدعة في حياتها.

قالت له بجرأة:
"هل تريد الحقيقة يا باي؟ حسنا. الحقيقة هي أنني كنت ضائعة ووحيدة عندما التقيت بك أول مرة، كنت لا شيء، إنسانة بلا هدف ودفعتني أنت الى الخروج من قوقعة حياتي، وقدمت لي صحبتك. وأهم من ذلك منحتني الفرصة لأحدد مستقبلي في حقل أحبه أكثر من أي شيء في الدنيا. سأكون دائما ممتنة لك لكل ما فعلته من أجلي."

وتمهلت فترة وهي تشعر بضيقه ثم أردفت تقول:
"كم كنت أتمنى ألا تدفعني الى أن أتفوه بما قلته يا باي، لم أقصد أن أكون قاسية معك، ولكنني لم أعد بعد ضائعة أو وحيدة. لي مستقبلي وهدفي وهذا كل ما أبتغيه في الحياة، استمتعت بالاوقات التي أمضيناها سويا، لكن ما أريده

هو فرض سيادة عملي على حياتي. وأوجز كلامي في عبارة واحدة... هي أنني ببساطة لم أعد أحتاج اليك بعد الآن."

وسقطت يداه بعيدا عن كتفيها مبتعدا عنها، وقال:
"أدرك ذلك."

ثم أردف يقول بصوت متجهم:
"لا أظن أنه كان في وسعك أن تضعي الأمر بصورة أكثر وضوحا من ذلك."

قالت سابرينا موضحة:
"لم يكن قصدي أن أستغلك بوعي مني... أو بلا وعي، أرجو أن تصدقني فمنذ أسبوعين أدركت أنني أريد أن أكرس كل وقتي لعملي، ولكن لم أعرف كيف أفضي اليك بالامر حتى لا تشعر بجحودي نحوك فما فعلته لي. وكان كل ما تطلبه مني مجرد صداقة عابرة مقابل خدماتك لي، وكنت أنا أنانية لدرجة أن ضننت عليك بهذه الصداقة، لذلك حاولت أن أشعل الحرب معك، على أمل أن تغضب وتكون البادىء في فصم عرى صداقتنا. أنا آسفة يا باي."

وتدحرجت دمعة من بين رموشها لكذبتها الشنعاء، ولكن صمته أوحى لها بتصديق كلامها. سألته بصوت يشوبه الألم:
"هل يضايقك أن تعود بي الى البيت يا باي؟"

فوافق بمرارة:
"لا أظن أن أحدا منا له أدنى رغبة في الطعام، ليس هذا غريبا."

أخذت يد مجهولة بمرفقها، ولم يتبادلا كلمة واحدة. ولم يعلق باي على دموعها التي راحت تجري فوق وجنتيها، ولم يقل لها حتى كلمة وداع عندما بلغا باب المنزل، ولكن عبارة حظا سعيدا المتهكمة التي تفوه بها، تردد صداها في أذنيها طول الطريق المؤدية الى غرفتها، حيث ألقت بنفسها على الفراش وانفجرت باكية.

١٠ - تقييم فني

نادى غرانت لين على ابنته من الطابق الأسفل:
سابرينا ... هل يمكن أن تنزلي أود رؤيتك دقيقة واحدة.
فتنهدت سابرينا بتثاقل وقالت:
"ألا يمكنك الانتظار يا أبي؟"
أجاب:
"لا ... إن الأمر بالغ الأهمية."
قامت سابرينا بتغطية التمثال الذي أوشكت أن تتمه. وكان في وسعها أن تقنع أباها بتأجيل ما يراه مهما، إن هي أصرت على عدم النزول. ولكن الاعياء بلغ بها حدا لم تستطع معه مواصلة النقاش فخلال الأسبوعين السابقين كانت تعمل بجد كبير وتنام قليلا.
قالت:
"سأنزل حالا، ماذا تريد مني يا أبي؟"
وراحت تهبط السلم، وعندما بلغت منتصفه شعرت بوخزة في ظهرها، وألقت اللوم على أعصابها المتوترة، وتوقفت عند الدرجة الأخيرة، بينما كانت رأسها تندفع تجاه نهاية السلم، عندما فوجئت بصوت باي المتهكم يكبح من سرعتها وهو يقول:
"أهلا ... سابرينا ... أعتذر لتعطيلك عن العمل."
أحنت سابرينا رأسها، وهبطت الدرجة الأخيرة، وهي تدس يديها المضطربتين في جيبها، وقالت:
"إنها مفاجأة لي يا باي. ما الذي أتى بك الى هنا؟"

بدأ أبوها يوضح الموقف وقال:
"توقف باي ل..."
ولكن باي قاطع حديثه وقال:
"يمكنك أن تسمي هذا آخر خدمة مفيدة أقدمها لك. أريد يا سابرينا أن تقابلي هاول فلتشر."
سمعت صوت رجل ينم عن ثقافة يقول:
"هل هذه هي السيدة الشابة التي حدثتني عنها؟"
وتقدم لتحيتها واستطرد يقول:
"الآنسة لين، أرجو أن يكون لقاءنا من دواعي السرور لكلينا."
وقدمت سابرينا يدا مرتبكة لتحيته، وقالت معتذرة:
"أنا آسفة ... لا أظن أنني أدرك تماما سبب زيارتك!"
"فقال باي موضحا:"
جاء الى هنا ليرى أعمالك الفنية، ويدلي برأيه في مهارتك الفنية وتفكيرك."
وافتقدت سابرينا الدفء الذي تعرفه في صوت باي، فبدا لها شخصا غريبا، ولم تتسم نبرته بالسخرية أو الصداقة اللتين اعتادت عليهما.
"لا أظن..."
وتوقفت عن مواصلة الحديث وكأنها كانت تعترض بخشونة على أن تكون أعمالها الفنية هدفا لتقييم أحد النقاد المختصين، فقال هاول فلتشر:
"يمكنك أن تكشفي الآن ما إذا كنت بددت وقتك في الرسم أو النحت أم أنك قد أنجزت عملا فنيا عظيما!"
حدثت سابرينا نفسها بما قاله باي بأنه يؤدي لها خدمة مفيدة.
رفعت رأسها وقالت:
"أحتفظ بكل أعمالي في الاستوديو في الطابق العلوي. هل أنت قادم معنا يا باي؟"
ويبدو أن باي لم يكترث كثيرا حتى يعرف نتيجة التقويم، وإنما استأذن في الانصراف من غرانت وهاول، وتجاهل سابرينا تماما.
قادت سابرينا، هاول فلتشر الى الاستوديو، ولم يتفوه الرجل بكلمة واحدة وهو يقوم بدراسة كل قطعة فنية، ولم تهتم هي بالامر، بل أنها لم تكترث لرأيه المرتقب،

رجل واحد فقط يهمها، إنه باي الذي جاء وانصرف قبل أن يخفق قلبها المحطم مرة ثانية.

كان عملها الفني يملأ ساعات الوحدة والفراغ. وكان سببا يدفعها الى النهوض من فراشها كل صباح. وكانت تأمل أن يأتي اليوم الذي تساعدها فيه أعمالها الفنية على الاستقلال عن أبيها. كانت ترغب في أن يتزوج من ديبورا، وينعم بالسعادة معها. ومن العدل أن يفوز أحدهما بالإنسان الذي يحبه. أما هي فقد فقدت باي!

سألها الرجل بعمق:

"ما مقدار العمل الذي أنجزته منذ أصبحت عمياء يا آنسة لين؟"

قالت وهي في غيبوبة:

"النحت. أما اللوحات الزيتية فقد أنجزتها قبل إصابتي في الحادث."

قال معقبا:

"فهمت أنك تعرفت الى السيد كاميرون منذ بضعة شهور."

دعكت سابرينا ظهرها في قلق، ثم قالت:

"أجل... هذا صحيح."

"كيف صنعت هذا التمثال النصفي؟"

فاعتلت ابتسامة شاحبة شفتيها وقالت:

"إن الأعمى يرى بيديه يا سيد فلتشر."

"أنت لم تسأليني بعد عن رأيي في أعمالك الفنية، أليست في لهفة الى معرفته يا آنسة لين؟"

هزت كتفيها باستخفاف وقالت:

"تعلمت من تجربتي أن الناقد يدلي بنقده دون أن يسأله أحد، كما أن الثناء يمنح بلا سؤال."

فقال معقبا:

"لك قدر ملحوظ من الحكمة."

"ليس في جميع الأحوال."

وكانت تعني أنها لم تتدبر أمر حبها بحكمة.

وبدأ هاول فلتشر في الحديث - أو بالاحرى - في النقد، ولم يحتد في كلمته، وإنما كان يقوم بتشريح كل قطعة فنية على حدة، دون أن يبالي أنه يقوم بتقطيع مستقبلها الفني الى شرائح. كان يجذب انتباهها الى كل عيب يشير اليه مهما بلغت دقته. وكان كل موضوع يطرحه بين يديها، يعد

امتحانا لها.

واستمر صوت الناقد المثقف في نقده، حتى ودت سابرينا أن تصرخ فيه لكي يتوقف عن الاسترسال في حديثه. فقد بدا الفشل الذي منيت به في أعمالها الفنية يثقل كاهلها، وبذلت جهدا كبيرا حتى لا تتلقى الضربة القاضية منه.

كان يكفيها الآم قلبها المهجور، والضربة القاضية كفيلة بأن تزيد من كآبتها، ولكن شعورها بالكبرياء دفعها الى أن ترفع رأسها عاليا وهي تستمع الى تشريح الناقد للقطعة الفنية الأخيرة. وأطبق صمت عميق بعد أن تفوه عبارته الأخيرة، فتنفست سابرينا الصعداء وقالت:

"حسنا... أنا لم أعرف إلا أني فنانة هاوية، غير مقتدرة."

ضحك الناقد وقال:

"يا إلهي... أنت لست غير مقتدرة... ولست هاوية.. من قال ذلك يا طفلتي؟"

هناك بعض القطع الفنية التي ينقصها الاتقان، وبعض القطع التي تفتقد الحياة، وتحتاج الى بذل مزيد من الجهد، ولكن بقية القطع مذهلة للغاية، ولا يمكن أن نصدق مبلغ الكبرياء والقوة اللتين تعبر عنهما ملامح الوجه الذي قمت بتشكيله في التمثال النصفي الذي يصور باي. كما أن العاطفة تبدو بالغة الأثر في تمثال السيدة. أنت تحاولين إبراز ملكتك الفنية في الأشخاص، مثلما برزت في لوحاتك. أنت تبعثين الحياة فيهم وترتفعين بالسمات الى الدرجة التي تجذب اليهم أنظار الناس."

لم تستطع سابرينا أن تصدق ما يتفوه به هاول فقالت:

"إذن... هل تظن أنه من المحتم علي أن أواصل العمل؟"

أعلن هاول فلتشر قائلا:

"إذا حافظت على هذا العمل، وهذا المستوى، فإنني أستطيع أن أعدك بأنك ستقيمين معرضا خلال ستة أشهر."

فقالت سابرينا:

"لا بد أنك تمزح."

"عزيزتي... إنني لا أمزح في مسألة المال، وأرجو أن تغفري لي عندما أقول إن عماك سوف يلعب دورا كبيرا في الدعاية لمعرضك الذي سيكون مزيجا بين أفضل لوحاتك، مع أفضل تماثيلك، ثم نشرع في دعوة الأشخاص المنصفين."

قاطعته سابرينا وهي تخشى أن يكون باي قد بالغ

في تقدير كل هذا فقالت:
"إنك تقول هذا إرضاء لباي. أليس كذلك؟"
سألها وكأن كرامته قد جرحت:
"هل تسألين عما إذا كان باي قدم لي رشوة لكي أقول لك ذلك؟ اعلمي إذن أن باي كاميرون بذل ضغوطا مضنية لكي يحملني على الحضور الى هنا اليوم، إنني لست مستعدا لكي أغامر بشهرتي من أجل أحد، وإذا لم تكن لديك الموهبة أو الفكر السديد، فأنني قادر على أن أخبرك برأيي بصراحة."

صدقته سابرينا، وأصبحت تشعر أنها تمسك بكأس النجاح في قبضة يدها.

وتركت الرجل يرسم لها خطة إعداد المعرض، ولكنها لم تستمتع بحلاوة النجاح لأن الرجل الذي تحبه لم يشاركها فيه. كان الانتصار يبدو لها مثل الطبل الأجوف.. كحياتها تماما.

* * *

أعلن هاول لفتشر بأن المعرض سوف يقام خلال ستة أشهر، وحدد موعد افتتاحه بالاسبوع الأول من شهر ديسمبر - كانون الاول واختار هذا التوقيت لأنه يناسب فصل الاجازات، وانطلاق الأموال من جيوب أصحابها، وأدركت سابرينا أن تقدير هاول للفن يسير جنبا الى جنب مع تقديره للمال.

تمتم أبوها حتى لا يسمعه المحيطون بهما:
"لقد نجحت يا سابرينا. سمعت ثناء وراء ثناء يطري قطعك الفنية."

فابتسمت سابرينا إبتسامة شاحبة، لنبرة الفخر العظيم الذي اتسم به صوته، وليس لكلماته التي قالها عن نجاحها، وكانت تتصور ابتسامته المشرقة التي اعتلت وجهه.

وقال هاول فلتشر الذي كان يقف في الجانب الآخر من سابرينا:
"كلمات الاطراء رخيصة يا سيد لين، ومع هذا حققت نجاحا عظيما يا عزيزتي سابرينا، لأن ضيوفنا دفعوا أموالهم امتثالا لما حكمت به أقوالهم."
قالت سابرينا بنعومة:
"شكرا لك يا سيد هاول."
"أنت تعرفين يا سابرينا أن الدبلوماسية تستحوذ دائما

على عقولنا، لذ سأضطر الآن الى القيام بجولة، أما أنت فيمكنك المكوث هنا.

وتناهى الى سمعها صوت نسائي دافيء يناديها قائلا:
"سابرينا... أنا باميلا تايسن. كنت مدعوة في حفل بمنزلي منذ عدة أشهر."
مدت سابرينا يدها تحييها، وقالت:
"طبعا سيدة تايسن. أذكر ذلك تماما. كيف حالك؟"
زجرتها السيدة وهي تقول بسخرية:
"أشعر بضيق قليل إذا كنت ترغبين معرفة حالي. إنه لأمر رهيب الا تفضي لي بموهبتك الرائعة، وانتظر حتى أضع يدي على حفيدي باي، وسوف ألقنه درسا أو أثنين لأنه أخفى سرك عني."
ابتلعت سابرينا ريقها وهي تقول:
"ليس هناك ما يمكن أن يقال."

كان قلبها يخفق بضربات متوثبة، ويد باردة تمسك بعنقها في كل مرة يذكر فيها اسم باي.
قالت باميلا:
"أظن أن باي سيأتي الى هنا الليلة ليشاركك الاحتفال بنجاحك. إنني واثقة أنه سيقطع رحلته البحرية التي يقوم بها الى باجا بولاية كاليفورنيا حتى لا تفوته مناسبة كهذه."

وحاولت سابرينا ألا يبدو على صوتها نبرة الاهتمام وهي تقول:
"أوه... هل كان باي يمضي هذه الفترة هناك؟ لم أره في الأونة الأخيرة. كنت منهمكة في الاعداد لهذا المعرض."

وكان من الواضح أن السيدة باميلا تايسن لم تكن تعرف أن باي وسابرينا قد افترقا منذ عدة شهور مضت، كما أن سابرينا لم تود بدورها أن تفضي لها بهذا الأمر. وبدأت السيدة تايسن لها بملحوظة، قائلة:
"إن التمثال النصفي الذي يصور باي يكاد يخطف الأبصار، وكل انسان يتحدث عن مدى الشبه بينهما. ولا بد أن هاول يدرك مدي نجاح التمثال، وهذا واضح من الثمن الباهظ الذي قدره له."

وهزت سابرينا كتفيها دلالة على أنه لا تعنيها كثيرا مسألة الثمن. وقالت:
"أنا مجرد فنانة."

ولم تكن سابرينا راغبة في عرض التمثال، ولكن هاول كان صلب الرأي في مناقشاته معها، وأصر على ألا تتيح الفرصة لمشاعرها بالتدخل في قرارها، فأذعنت له بشرط الا يعرض التمثال للبيع.

وكانت سابرينا تعرف أن تفكيره في مجالي المال والفن لا حدود له. وحتى لا يثار التساؤل في عدم عرض التمثال للبيع اقترح هاول أن يضع ثمنا باهظا له حتى لا يستطيع أحد شراءه. وأخيرا وافقت على اقتراحه.

وسألتها باميلا:

"ماهي ردة فعل باي عندما رأى التمثال الذي يصوره أبلغ تصوير؟"

واختار أحد الضيوف هذه اللحظة ليقدم التهاني الى سابرينا، فاستطاعت أن تتجاهل السؤال الذي وجهته لها باميلا، ولحسن الحظ التقت باميلا بأحد معارفها، فانتحيا جانبا وراحا يتجاذبان أطراف الحديث، فأصبح في وسع سابرينا أن تهرب من الاجابة على سؤالها تماما.

قالت لها إحدى السيدات:

"كل اللوحات والتماثيل مدهشة يا آنسة لين، مذهلة تماما. إنها تثير الاعجاب."

هزت سابرينا رأسها بأدب وقالت:

"أشكرك."

وتدخل هاول فلتشر في الحديث وأمسك مرفق سابرينا وقال:

"اسمحي لي سيدة هاميلتون. لابد أن أسرق سابرينا منك لدقائق معدودات."

وقدمت سابرينا اعتذارها للسيدة، وسمحت لهاول أن يقود طريقها. وأخذت العصا العاجية تتحسس السبيل أمامها، وكان هاول ينسى أحيانا أنها عمياء، فيتركها تصطدم بالاشياء التي تعترض طريقها.

سألته:

"من هو الشخص الذي تدفعني الى رؤيته هذه المرة؟"

فقال بصوت يشوبه الوجل:

"لا أعرف كيف أخبرك بدقه يا سابرينا، لدي مشتر للتمثال النصفي، وهو يرغب في رؤيتك."

قالت بحدة:

"مشتري؟ أنت تعرف أن التمثال ليس للبيع."

فأجاب مدافعا:

"حاولت أن أشرح له أنك غير راغبة في التخلي عنه، لأن ثمنه الحقيقي أقل مما هو مقدر له، وخشيت أن تبلغ هذه الحقيقة أسماع الضيوف، فتتعرض الأسعار الأخرى للمساومة."

فقالت سابرينا متهمتة إياه:

"أما كان الأجدر بنا ألا نعرض التمثال في المعرض. أنت تدرك مقدار شعوري نحوه."

وافق على كلامها بهدوء قائلا:

"أجل... أدرك ذلك تماما. يمكنك أن تناشديه نخوته الطيبة، وتحاولي إقناعه باختيار تحفة فنية أخرى. إنه ينتظر في مكتبي حيث الخلوة التي تتيح لكما المناقشة الحرة."

قالت سابرينا بإصرار عندما خلفت وراءها أغلب الضيوف، لتدخل إحدى القاعات الخلفية:

"لن أبيع التمثال. ولن أهتم كثيرا بما قد يترتب على قراري."

ولم يحاول هاول أن يعقب على كلامها، وأبطأت خطواتها عندما بلغا بابا مفتوحا، ودخلت القاعة، ورفعت رأسها في عزم وإصرار وتمتم بكلمتي حظ سعيد، وهو يغادر الغرفة ويغلق الباب وراءه، فتلفتت حولها، وارتجفت وهي تنشد معونته.

وفجأة سمعت شخصا ينهض واقفا، ولما كانت قد ترددت على المكتب عدة مرات، فإنها عرفت أن المشتري كان يجلس على الأريكة الفيكتورية الصنع، الواقعة مقابل الجدار. ورسمت سابرينا ابتسامة على شفتيها، وتقدمت تخطو نحو الصوت. ومدت يدها لمصافحته وهي تقول:

"أنا سابرينا لين، كيف حالك. أخبرني هاول بأنك حريص على شراء قطعة فنية أثيرة الى نفسي."

"هذا صحيح يا سابرينا."

وصعقت لسماعها الصوت، وسقطت يدها الممدودة لترتد الى جانبها، حتى تظل رابطة الجأش. وكادت الأرض تميد بجنون تحت قدميها، ولكن ركبتيها كانتا تهتزان هلعا.

"باي... باي كاميرون!"

رددت اسمه بأنفاس متقطعة، وأن كانت نبرة الفرحة تشوب صوتها وأردفت تقول:

"يا لها من صدفة! باميلا تايسن أخبرتني منذ لحظات

بأنك تقوم برحلة بحرية في باجا. إنه من الصعب أن يتواجد شخص في مكانين في وقت واحد.

ثم حدثت نفسها قائلة: هاول هذا الخائن. لماذا لم يخبرني بأن باي هو الشخص الذي يترقب انتظاري؟ ولا عجب أن يتسلل هاول ويتركنا وحدنا.

سمعت باي يقول بنبرة أشاعت القشعريرة في أوصالها:

"إنه خطأ اقترفته باميلا، فقد أعددت العدة للعودة بعد مضي بعض الوقت. أرى أنك قد حققت النجاح الذي كنت تنشدينه. ما شعورك الآن؟"

فقال قلبها: شقية، ولكن لسانها كذب وقال له:

"سعيدة!"

قال باي بسخرية:

"يبدو مظهرك أنيقا ومتخما للغاية، وأنت في ثوبك الأسود. وقد التف عقد من اللؤلؤ حول عنقك الطويل، فأضفى عليك لمسة بسيطة ولكنها رائعة. وقد اجتمع الفستان والعقد ليبرزا الشحوب والجمال على بشرة وجهك. وكأنما كنت تكابدين مأساة عظيمة، ونجحت في التغلب عليها. ولا شك أن الصحافة وجدت في قصتك ما يشغل صفحاتها."

وتاقت نفسها الى أن تقول له بأن مأساتها تكمن في فقدانها له وليس في فقدان بصرها، ولكنها التزمت الصمت، وهي تحاول ألا تسمع سخريته التي تختفي وراء نبرة صوته.

واستطرد يقول:

"يراودني التفكير في أنك سوف تنبذين عصاي وتستعيضين عنها بأخرى."

وكانت إشارته الى العصا العاجية التي تحملها، تدفعها الى أن تتشبث بمقبضها بشدة، وكأنها كانت تخشى أن يحاول استعادتها منها.

فقالت سابرينا باستخفاف:

"ولم أفعل ذلك؟ إنها تؤدي غرضها."

قال باي بجفاء:

"لن أتهمك فأقول إنك ترتبطين بها ارتباطا عاطفيا للغاية، ولكنني عندما تطلعت الى التمثال النصفي الذي صممته لي، أدركت أنك تنظرين الى علاقتنا السابقة بشغف كبير."

قالت:

"شيء طبيعي..."

ونم اهتزاز صوتها عن مبلغ عمق ولعها به. وأردفت تقول:

"هذا علاوة على أنني سبق وأخبرتك مرة بأنني أحب وجهك. إن ملامحك قوية، وشامخة."

قال:

"هل أخبرك هاول أنني أزمع شراء التمثال."

قالت ضاحكة:

"أجل، ولكنني لم أعرف أنك أناني يا باي، تخيل أنك تشتري صورة لنفسك."

"سيكون تذكارا جميلا.."

قالت متلعثمة:

"باي... أنا..."

وتحركت قليلا حتى دنت منه، وهي تشعر بعينيه تتفرسان في وجهها الذي راح يهتز من القشعريرة والبرد. واستطردت تقول:

"هناك خطأ. هاول جاء بي لأن... حسنا... التمثال ليس للبيع."

سألها باي وكأنه لم ينزعج لصوتها المتلعثم:

"ولماذا ترفضين بيعه؟ أظن أن الهدف من هذا المعرض هو بيع المعروضات."

قالت:

"المعروضات للبيع فيما عدا التمثال النصفي الذي حددنا له ثمنا باهظا حتى لا يستطيع أحد شراءه."

فقال بهدوء:

"أنا أستطيع شراءه."

فقالت في يأس مميت:

"كلا... لن أدعك تأخذه مني، فقد أخذت كل شيء عندي. أرجوك دعني أحتفظ به."

قال ضاحكا:

"آخذه منك!"

وزحفت يده لتقبض على رسغها، ثم أردف يقول:

"ماذا أخذت منك؟ هل نسيت أنني الشخص الذي عرفت كيف تستغلينه من قبل؟ لماذا لا تأخذين نقودي؟ لقد أخذت كل شيء ثمين قدمته لك."

قالت:

"ماذا قدمت لي؟ الشفقة؟ العطف؟ الاحسان؟"

وراحت تضرب الارض بعصاها في حدة واضحة، وكانت كل ضربة تتردد مع كل كلمة غاضبة تتفوه بها. ثم استطردت تقول:

«متى يكون للأشياء المهنية قيمة ثمينة. ولمن تقدم الأشياء الثمينة؟ بالتأكيد لا تقدمها لي. إنك لم تكترث بي كثيرا، إنني في نظرك مجرد حالة تقدم لها الاحسان.»

وانطلقت تنهيدة عميقة من صدره وهو يتساءل:

«هل مازلت تؤمنين بأنني أشعر بالأسف لك؟»

قالت سابرينا:

«كنت بالتأكيد لا تحبني.»

وقبضت يداه على كتفيها وأدار وجهها نحوه، ثم قال:

«وإذا كنت أحبك، فهل يختلف الموقف؟»

وقالت سابرينا لنفسها لو لم تبعث لمسة يده ومضة نارية لتجري في سلسلتها الفقرية لاستطاعت أن تصمد أمام الألم الذي كان يمزق قلبها، أما وهي تشعر الآن بالعجز في أعماقها، والكبرياء لاتستطيع أن تشد أزرها، فليس أمامها سبيل إلا أن تلقي بنفسها على صدره. وقالت له وهي تتنهد:

«لو أنك أحببتني قليلا يا باي... لما توانيت عن أن أحبك بجنون، ولكن ماذا تفعل فتاة مع رجل يشعر نحوها بالشفقة... لأنها عمياء؟»

وخفت حدة صوته، وتركت يده كتفيها، لتمسك برسغها، بينما دغدغت اليد الأخرى برفق وجنتيها. وقال:

«إنني لم أشعر مطلقا بالشفقة نحوك، كنت غارقا لأذني في حبي لك، حتى بت أخشى أن افقد قطرة من هذه العاطفة.»

وانتحبت سابرينا في ألم، وهي تحاول أن تنفلت من ضمته الرقيقة وقالت:

«باي. لا تكذب علي. ألم تخجل من سلوكي الذي كان يدفعك الى السخرية مني؟»

قال باي:

«لا أكذب عليك صدقيني. إن الجحيم الذي كابدته خلال الشهور السابقة لم يدفعني الى السخرية منك.»

قالت تسأله حتى يتوقف عن تعذيبها:

«أنا فتاة عمياء يا باي. كيف يكون في وسعك أن تحبني.»

«يا ملكتي العمياء.... الجميلة والشجاعة، هل تسألين كيف أستطيع أن أحبك؟»

وكان صوته دافئا صادقا، وبددت نبرة الاخلاص فيه الخوف الذي كان يملأ قلب سابرينا فقالت له:

«لن تحاول خداعي مرة ثانية، أليس كذلك يا باي؟ لا تفعل ذلك معي إذا كان التمثال هو كل ما تبغيه سأهبك إياه عن طيب خاطر إذا توقفت عن الكذب علي.»

وأطبقت يداه على كتفيها، وجذبها الى صدره ووضع يدها على قلبه الذي ترددت نبضاته فوق راحتها. وكان نبض قلبها في سباق جنوني مع نبض قلبه وأخيرا ألقت وجهها بين يديه.

وهمس في أذنها قائلا:

«كونك ضريرة، لا يقلل من شعوري بأنك امرأة عندما أضمك بين ذراعي.»

فتمتمت قائلة وهي تلقي برأسها فوق قلبه:

«لم تدعني أشعر بذلك مرة...»

ضمها الى صدره بيدين قويتين وكأنه يخشى أن تحاول الهروب منه ثانية وقال لها:

«أحببتك حبا عميقا منذ البداية، وربما بدأ ذلك في تلك الليلة التي لجأنا فيها الى زورقي هربا من المطر. لا أدري... ولكنني قلت لنفسي يجب أن تأخذ الأمر بهوادة، فإنك تتصفين بالكبرياء والعناد والتحدي. لذلك لم أحاول أن أؤكد لك في البداية بأنني أحبك، لأنك ما كنت ستصدقين مشاعري. أنه ليس هناك شيء مستحيل مادمت قد عقدت العزم على تنفيذه وبعد تلك الانجازات فكرت أن أدفعك الى أن تحبيني. ولا يمكنك أن تتصوري مدى عنف الصدمة التي تلقيتها يوم أن أخبرتني بأنك لم تعودي في حاجة الي.»

وابتسم باي بينما ازدادت سابرينا اقترابا منه وتمتمت بحرارة:

«أنا محتاجة اليك، أنا أريدك بجنون. كنت أرتعد عندما يراودني الاحساس بأنك تشعر بمزيد من الشفقة نحوي.»

«لم أشعر بالشفقة نحوك، وإنما بالفخر بك.»

واستدارت برأسها نحوه في تساؤل وحيرة وقالت:

«بالفخر بي؟»

«كنت دائما فخورا بك لأنك كنت دائما تقبلين التحدي الذي أوجهه لك.»

وراحت تذكره بابتسامة:

«كنت أقبل التحدي مع الاحتجاج.»

قال باي ضاحكا:
"لا يستطيع أحد أن يتهمك بأنك لينة العريكة. أجل أنت عنيدة ومحبة للاستقلال ولست بسهلة الانقياد. كان ذلك واضحا منذ أول مرة التقينا فيها، وصفعت وجهي".

وتركت سابرينا أصابعها تداعب وجنتيه وهي تقول:
"وأنت رددت لي الصفعة التي أثارت غضبي، وأثارت معها حبي لك".

وأطبقت أصابعه بسرعة على يدها، وطبع عليها قبلة حارة - ثم سألها:
"هل يمكنك أن تخبريني الآن، لماذا هربت مني عندما كنا في حفل باميلا؟ أريد أن أعرف الحقيقة هذه المرة".

ووثب قلبها وثبة مفاجئة، لأنها في هذه اللحظة لا تريد أن تتحدث ولكنها قالت:
"سمعتك تتحدث الى فتاة تدعى روني، وقالت إنك أتيت بي الى الحفل لأنك تشعر بالأسف لي، وأنك استخدمتني وسيلة لتثير الغيرة في قلبها. وأنت لم تنكر ذلك يا باي، وتعلقت بأمل أن تقول لها إنني على الاقل صديقتك، ولكنك تركتها تتحدث عني كإنسانة مسكينة سيئة الحظ، وتستحق الاحسان، وظننت أنها تقول الحقيقة. وهذا ما دفعني الى الهروب".

"إن أول شيء سوف أتذكره عندما نتزوج هو حدة سمعك. ولو أنك أنصت قليلا، لكنت سمعت بقية حديثي، فقد قلت لها أنني لا أحب أن أسمع منها أية تعليقات على المرأة التي أزمع الزواج منها".

وشابت صوتها موجة من الحب الدافىء وهي تقول:
"باي... هل تنوي الزواج مني؟"
"أنوي الزواج منك.. إذا وافقت على طلبي".

فهمست وهي تلهث ألما:
"لا تسخر مني..."

وعانقها برقة أشعرتها بأن حبه بدد كل الظلام الذي يسود حياتها:

وبعد مضي لحظات دفعها باي بذراعيه، لكنها ترنحت نحو صدره لتنعم بلمسات أصابعه، وأخيرا أمسك جسمها بحزم على مقربة منه فقالت له هامسة:
"حبيبي... كم أحبك - أرجو أن تمسك بي فترة قصيرة أخرى".

فقال بصوت ينم عن عمق حبه:
"إن الفترة القصيرة ستدوم طويلا".

وانفجرت شفتاها عن ابتسامة تتراقص بالسعادة الفياضة، وقالت:
"باي... الباب له قفل".

فقال باي يذكرها:
"هناك عدد كبير من الناس يتساءلون ماذا حدث لنجمة المعرض".

فأجابت:
"لا أريد أن أكون نجمة..."

وسألها باي:
"وعملك.."

ولكنها قاطعته قائلة تتم كلمته:
"سيملأ اللحظات التي تكون فيها بعيدا عني. سيرضيني كل الرضا".

دمدم باي:
"أنت تعرفين أن العمل الفني ليس أمرا هينا وإنما يتطلب دقة الاحساس".

وهمست قائلة:
"أعرف ذلك..."